الرواية الأكثر مبيعاً

آماليا حلوة

AMALIA HELWEH

قلب أزرق

رواية

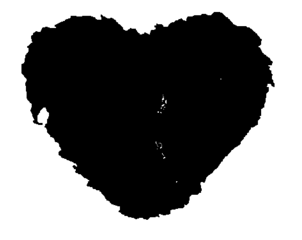
مكتبة





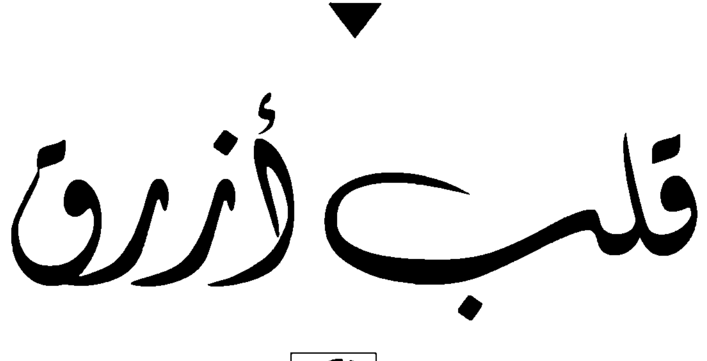
مكتبة | 448





آماليا حلوة

A M A L I A   H E L W E H





قلب أزرق (رواية)
آماليا حلوة
الطبعة الثالثة 2019م 1440هـ
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2016/11/5064

ردمك: ISBN: 978-9957-74-630-8



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
Dar Konouz Al-Ma'refa for Publishing and Distribution
www.darkonoz.com
عمان - وسط البلد - شارع الملك الحسين - عمارة الشركة المتحدة للتأمين
هاتف: 4655877 فاكس: 4655875 6 962+ خلوي: 5525949 79 962+
ص.ب 712577 عمان 11171 الأردن
Amman, Downtown, King Hussein Str.
Tel: 4655877 fax: +962 6 4655875 Mobile: +962 79 5525949
P.O.Box: 712577 Amman 11171 Jordan
E- mail: info@darkonoz.com, dar_konoz@yahoo.com

الإشراف الفني وتصميم الغلاف: محمد أيوب ayyoubdesign@yahoo.com

إهداء

إلى أمي وأبي القلبين اللذين بللا صدري بمطر الحب وأنبتا فيه لحن الايمان به، اللذين حملا قلبي على أكف من ضياء تقود دروبي كلها نحو السكينة، الملجأ الذي كلما أخذت يأسي صوبه تكور واضمحل وصار أجنحة من أمل تزرع جذورها في كتفي أول من آمن بوجودي وأحبه...

إلى حبيبي رفيق عمري القلب الذي حملني إلى وطن حدوده بسمته التي تأتي لقلمي كل مرة إلهاما يهب حرفي اكتماله، ويضعني كل مرة في وجه نفسي، ويملؤني باليقين بي الذي يفيض منه أكثر مني.

إلى أخوتي أحب الخلق لفؤادي، الذين كانوا دائما السند والعون والدفء والأمان الذي أطوف الدنا وأعود لأجده كما هو، نقيا كبدئه، وفيا عذبا كل مرة.

إلى الروح التي جعلت من قلبي قنديل يشرق نوره امام عذوبة وجهها، الروح التي أصبحت حياتي بعدها تستحق أن تعاش في اوج كمالها.

أهدي نبضي هذا ..

****

حبيبي، عذبٌ صباحك

هلا أتيت بالصباح الغائب عن مقلي؟

الصباح الذي هرع طويلاً، لنوافذ الإشراق التي أغلقها غيابك، وَيئس مِن حزنِي ورحل.

الصبحُ لا يزور الحائرين بينَ الصحو وَالعتم، فِي الحب قليلاً ما نبصرُ صحواً، وكثيراً ما نغرقُ حزناً.

سُنة المحبينَ الألم، لا مفر منهُ، كنت تقول، وكنتُ أقول أفنى كُلِي وأغدو ظلك.

هلا أتيت؟ جراحِي تتفتق بعد أن رتقتها، إني أنزفُ كموتٍ لا يردعهُ شيءٌ سوى أن يحدث.

هلا أتيت؟ بصوتك الذي يحركُ نبضي عندما أسمعهُ كأنها المرةُ الأولى.

مِن عطايا الحب أنهُ يجعلك تخفقُ، وترتعش، وتحلق، وتعيدُ النبضة البِكرَ في حب أحدهم، بمجرد أن تلتمس أي شيء مِن أثرهم؛ كضحكتهم، أو كقصيدةٍ عذراء لم تكن إلا لهم، أو لمجرد مرورٍ على بال خاوٍ إلا من هواهم.

تعال.

هذا الدربُ لا ينتهِي، الليل والنهار لا يدركان بعضهما، ويطولان، بما لا أستطيعُ معهُ صبراً.

أعلم أني لستُ الوحيدة التي تتجرعُ علقم الفقد أو مرارته، وأن كثيرينَ غيري رحل الحبيب عنهم، لكن دعني أخبرك أن شيئاً من هذا لا يؤنسني وَلا يواسيني ولا يمنحني ذرةً مِن سكينة.

فقط أريدك، حتى لو جئتني بوجع الكون كله، وألقيت بحبي في عقلك لا قلبك، بما يملي عليك جرحك في الحب أن تفعل.

أريدك حتى لو كنت القطب العائم الوحيد في قصة تنظرُ لها مِن خارج بعيد، وتبتسم من مس الحب المجنون الذي تعتق في عيني هويتهما.

أنت تعلم أنني لم أكن ضعيفة عندما وطأت قدماي بطولة هذا الحب التي لعبتها وحدي طويلاً، ولم أكن أحتاجُ أحدا، ولم أكن أريدُ لحياتي ألماً أكبر، وجرحاً أعمق وأكثر نزفاً.

كان بإمكاني أن أتراجع عن حبك بسهولةٍ ما كانت تُتاح كثيراً في عالم الهوى، وكنتُ في كامل إدراكي؛ لكنني لم أفعل كنتُ أقوى، من الوجع، ومن إنكاركَ لقلبي.

أن تحب ما فيه هلاكُ قلبك وشقاؤه، وتمضي إليه بقدمٍ من يقين؛ لهو القوة، والايمان، وقلبٌ يدركُ هبة الحب، وما تفعلهُ في أحيائك.

حبيبي تعال، هذا الحب لنا وحدنا، وهذه القصيدة العرجاء تستقيم بوجدنا.

تعال انطفئ العالم، الظلمة أقرب إلى مِن قلبي.

أنا لست عاجزة عن المضي قدماً، وأن أنسى، وأضعك في صندوق ذكرياتي الأجمل، وأغلق عليك وعليهم الى الأبد، لكنني ببساطة لا أريد.

في الحب أنت ملكُ خياراتك لا قدراتك.

حُبك يا حبيبي صار في دمي، وفي عظامي، وفي ملايين الخلايا التي تكونني.

أنا متعبة أموت كلما تذكرتُ غيابك، وأحيا كلما تذكرتُ حبك.

طور عمري شعرةٌ رقيقة بينهما.

لماذا أعطيتني عمراً رحباً؟

وأخذتهُ قبل أن أعيشهُ كلهُ.

آخر الكلام وأولهُ.

أنا متيمةٌ بك؛ إن كان التيم يكفي.

لا وصف يكفي، ولا حرف يفي.

أذكر أنني مددتُ يدي في آخر موعد ومددت يدك، كنا في أقرب نقطةٍ من كمال حبنا، ثم فجأة في غمضة عين أصبحت سراباً، لا أحسهُ، ولا أمسكهُ بين يدي الواهنتين.

عجبي مِن دنيا!

تفقدكُ كل شيء في وهلـةٍ من عجزك عن إدراكها، ثم تتركُك مجبراً أن تعيش موتك قبل وقوعهِ، وتعلقك بسخريةٍ علـى أوراق الحياة اسماً فقط.

لا ينبضُ ولا يضحكُ ولا يغني.

أرضاً خاويـة بلا أمل أو حب ينثرُ فيها.

أنا دونك لا شيء؛ نغمـةٌ حزينـة ملقاةٌ علـى طرقات الحنـين لا تريدُ أن يسمعها أحدٌ سواك، وألا يحملها سواك، نحو مولدها؛ الذي لم يأتِ.

عدلِي، وظل لِي؛ لأعجز عن الكلام، وتتطايرُ منِـي الأحـرفُ حمرةً.

لم أتوردُ منذ رحيلك الا بكـاءً، مـا روي وجهـي المكمـور في غيابك.

حبيبي، حبيبي، تعال.

الربيعُ أتـى، الأرض تولد مِن جديد، عدا قلبي؛ فهـو لا زال في شتائه، كما يظل بهِ كل عام.

أرمي برأسي إلـى الحائط؛ إذ إنه الشيء الوحيد الذي يسندني هنا، ألبس كنزتي الزرقاء التي أهدتني اياها رفيقتي في آخر زيـارةٍ، أسحب أكمامها إلى آخر يدي

وأطالعُ الدفء الذي يحتفي بهِ الكون بكل تفاصيله ويستقبلهُ بحنين المنغمسُ بغربتهِ الطويلـة.

هذا الدفـء يطوق الدنيا كلها ويغفل عن قلوبنـا هنـا، كأننـا السراب الذي لا يزور صحراءهُ ربيع، متعبٌ قلبي مـتروكٌ علـى حافـة الجنون بلا أمل، عروةٌ وثقـى من الخوف لا تنفـك، يـشعر بإعياء شديد لا دواء له، ملازم له كما الحياة لا ينهيهما الا الموت.

سارة تجلس أمامي، هي الوحيدة التي تلتصق بـما تبقـى مـن عقلي المهترئ باليأس؛ كي لا يـدفعها جنونهـا إلى تيـه أعظـم مـن الذي تعيشه.

تحمل صورة محمد الـذي لا تـتكلم إلا عنـه، ووردة عمرهـا سبع أعوام من حب واحتراق، ما ذبلت هذه الوردة رغم وحـشة الزمن على الأقل في قلب سـارة، تحدثـه كأنـه أمامهـا، تخبره أنهـا تشتاق، وتنتظـر عودتـه مـن الجنـة وتبـوح بأمنياتهـا وأحلامهـا؛

إحداها أن تكون ملاكا بأجنحة فتصعد له لأنه تأخر، وأخرى لو أن الدنيا لم تكن طريقاً بمسار واحد للأمام لا رجعة فيه أبداً، ولو كان خلاف ذلك لعادت وجعلته يبقى وتشبثت بتلك البسمة واحترقت بعينيه المتوهجتين حباً، وطوقت قلبه بدفء كفيها حتى تدخله وتبقى فيه، ولا تتجرع الفقد والموت بعمر لا تعرف متى وكيف يمضي.

لو أنها ظلت تسند رأسها إلى كتفه حتى تعود إلى ضلعه، وتعود منه، ومعه، وله بلا شوق يهدم باستمرار أركان قلبها الصدئة الآيلة للسقوط.

تظل تحدثه بفتات روحها كل يوم حتى تدخل في موجة بكاء مخيفة، تنقذها من احتمال سكتة تسقط قلبها صريع حبه وأشواقها، لا يسكت بكائها إلا إبر المهدئات التي تذهب بها إلى عوالم اللقاء حيث محمد كما تخبرني.

الآن هي لا زالت تبتسم، قريباً سينفجر الدمع.

اقترب مني آنذاك المشرف على علاجنا مع رجل آخر، لم أولهم أدنى اهتمام، واشحت بوجهي عنهم، أذ أصبحت أضع العالم من حولي على الصمت الذي لا يتشقق بصخب أي شيء.

أخبره المشرف وهو يبتسم بسخرية الازدراء: هذه أعقل المجانين هنا.

لم ألتفت كنت أنت ولم أكن بالنسبة لك إلا نصا ملقى على قارعة الفرص

يريد قلمك أن يلج اليه.

- كيف حالك؟

- بخير.

- ما اسمك؟

- ما الفائدة؟

- لا شيء.

- إذن، سمني أي شيء.

- " ضحكت"، حسناً.

- أنا أكتب رواية بطلها مريض نفسي وأحداثها تدور في مصح عقلي.

- قاطعتك - لسنا مرضى.

- كلنا نمرض، لا عيب في المرض، وكلنا بشكل أو بآخر قد نكون مترنحين على هاوية الجنون.

- لسنا مجانين.

- ماذا تكونون إذاً؟

- نحن متعبون فقط، ومتهالكون من ادعائنا بأننا أحياء وفي كثافة الموت نعتلي الثقل والنحيب، ومن اعتكافانا على صلوات الحب المجبول بالحزن، ما إن يرحل الحبيب بعيدا، ومن عبث أسراب الأنفاس القليلة التي تتسرب بصعوبة الى رئاتنا الواهنة بالغياب.

نحن لسنا مرضى، أو مجانين، نحن عاقلون أكثر من اللازم نحن فهمنا كل شيء، وأدركنا كل شيء، وضاق كل شيء في صدرنا، واشتعل ودارت الدنى في رأسنا ولم تتوقف كمتصوف لا تهدئ وتيرة دواره إلا إذا لمس السماء.

نحن متعبون للحد الذي قد يكسرنا نسيم عابر وقد يبيدنا ضوء شمعة.

نظرت لك لأول مرة كنت مدهوشاً، ثم لما التقت أعيننا ابتسمت.

ثم قلت: " أنتِ أذكى من أن تكوني مجنونة"

قطع نحيب سارة ابتسامتك.

وقفتُ ببرود الميتين إن قاموا.

أحملها وأسند يديها الداميتين، من حزن الوجع الذي لا يكف عن المبيت فيهما، تنظر لي وتبكي.

أتمنى لو كنت أستطيع أن أحضر لها ظل محمد ولا تقتلني هذه الأدمع كل يوم.

وقفت وكنت تريد مساعدتي، أشحت بوجهي عنك، وكان هذا يا حبيبي أول فراق نقترفه من كثير بعده.

أتعلم أنني كنت كلما غادرتني ناطقاً أراكِ في غدي، يملؤني الكون بعقارب تتحرك باستماته في صدري، كأن الحب لا يقلب بنبضهِ المجنون بلادة وقعها.

الوقت في الحب إما أن يعلمك الصبر أو يجعلك تنهار وسط الانتظار الطويل.

في الحب لا وجود للحقائق الثابتة، قصتك فيه قد تكون في فردوسه أو في جهنمه.

لسبب أجهله، حملت وجهك، وعلقته على سقف الغرفة، وظللت أرسم تفاصيله التي التقطتها كلما غمض جفن كبريائي لوهلة.

أكذب إن قلت لك إني أحببتك منذ الوهلة الأولى.

لم أؤمن بهذا يوماً؛ لكني أؤمن بقلبي عندما يراوده الشعور المجبول بالظن لا القطع أنه وصل، وإنه يتحسس بدء المسير، وإنني في نقطة ما لربما سأدرك أنك أنت الحب بعد أن أغرق فيك.

لقد كنتُ شعورا، صار نبضاً، ثم غدا عشقاً، ثم أضحيت كل شيء، كل شيء.

أخذ النوم صورتك.

في الصباح أيقظتني الممرضة تخبرني أن أحداً يود رؤيتك.

منذ أن دخلت إلى هنا ولم ينطق أحد اسمي سؤالاً.

ولم يكن ليهمني ذلك ابداً، كنت أريد أن ينساني الكون ويقذفني إلى الجزء المغيب من عقله.

لم أرد لنفسي أن تزاحم حياة أحدهم، كنت فقط أريد أن أظل وحدي، مجردة من الشعور والبشر.

همت إليَّ سارة عندما رأتني لأول مرة أُطلب.

-ستخرجين من هنا؟

- قبل أن أنفي-"إذا لقيت محمدا أخبريه أنني وحيدة هنا وأنني أريده أن يأتي ليأخذني"

- سارة، محمد مات.

نظرت لي بحدة وكأنها تستنكر ما أقول وتعرفه للمرة الأولى، ولا تصدقه، عادت إلى سريرها تقضم اهتراء أظافرها، وتدور بحدقتيها عوالم لا نعرفها.

خرجت مع الممرضة إلى الحديقة، حيث كنتَ تجلس على الكرسي الخشبي تحت الشجرة التي أظل عندها.

همست لي الممرضة: سأل أين تحب أن تظل، وعندما أخبرته أصر أن ينتظركِ هناك.

وقفت عندما رأيتني وابتسامتك التي كانت تعلن لقلبي بدء الصباح كانت تشرق على مقلي، واضعاً يداك في جيبك وانحنيت.

كنت سحراً يمشي على قدمين يأخذ الألباب؛ لكن غيمة حزني كانت تحجب عني نور حبك.

- كيف حالك؟

-هذا السؤال تحديداً لا تطرحه مجدداً.

- لم؟

- أحقاً ما زلت تسأله لمن حولك.

- إنهُ المعتاد لبدء أي حديث.

- أنا لم أفعل ذاك منذ زمن.

-لم؟

- لا أحــب أن أذكــر النــاس بجـروحهم وخــوفهم وعجــزهم وفقدهـم ورتابة دنيـاهـم، كنــت أتــصور أننــي عنـدما أسـألهم ستثور الآلاف من أمواج الهشاشــة فـوق رؤوسـهم، وتـصفع عيني.

أحياناً السؤال يقتلُ أكثر مِن الحال.

- ليس بالضرورة أن كل من سألتي عن حاله قد يكون حزيناً.

- لا أحد يستطيع أن يهرب من مس الحزن، أراهن أن المطر بللنـا كلنا وفي تلك اللحظة على الأقل رقـص الحـزن حـول قلوبنـا وغطاها بعباءته،

وبعضنا ردد " أتعلمين أي حزن يبعث المطـر؟ "

- " وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر "

- "وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع "

وأنت تنظر إلى قلبي الذي اعتدت أن أخبأه في عيناي.

- أنتِ حزينة أكثر من اللازم.

دون أن أناظرك.

- وأنت تجاوزت حزني الاكثر من اللازم، أكثر من اللازم.

طال صمتك.

كنت أهم بأن اغادرك الـى الداخل؛ لكنك قاطعتني.

- ما هذهِ الشرائط المعلقة علـى أغصن هذه الشجرة؟
- أنها الأماني التي أطلبها من الله.
- لا زال لديكِ أمنيات؟
- فقدان عقلي، لا يعني أن قلبي لا يحلم.
- كثيرةٌ أمانيكِ.
- الله سبحانه، كريم.

- هل لي أن أسأل عن إحداها؟
- هو.
- من؟
- الله.
-هو معك.
- بعيدةٌ عنه.
- أقرب اليكِ من وريدك لا يغيـب، هـو الحقيقـة الثابتـة في هـذا الكون المتفتت، كل شيء يضمحل ويضمر من بين أكفـك، إلا الشعور الخالد الذي يخترق كل قلب، هو أنه سيظل موجـودا، معكِ ولأجلك.

أدرت ظهرك وهممت تغادر، الفراق مرة أخرى يقطع الوقت الذي بات ينسج حباله حتى يقربنا، ويجعلنا على صفحة واحـدة،

نجوب لحاءها حتى نضع أنفسنا في النقطة التي تنهي كل الفروقات ونصير واحداً نقفُ على كل الأغاني معا، ونتدلل عليها عندما تطلب أن نكتبها أو نغنيها، ونصرخ في أعلى قمة نخلق نحن وجودها معلنين نصرنا على أي شيء يؤرق الفرح فينا، ثم نضحك على أي حزن يستحق أن يبكى وفي نهاية المطاف نجعل الطرق كلها لنا، نزرع فيها وردة أو مصباح أو ضحكاتنا الساذجة، سنكون قادرين على ارتكاب أي جنون نحلم به ما دمنا معا يا حبيبي .

لكنك لم تذهب عدت وجلست بجانبي.

- ما الذي مزق قلبكِ هكذا؟

- حاجتي للنور بداخلي.

- أني اشك أنك مجنونة.

- العقاقير المهدئة القابعة قرب سريري ستقطع شكك بيقين جنوني.

- أتمنى لو أنكِ لستِ بالمجنونة.

- ضحكت، علقها.

صرت تلتفت حولك لأجل قماشة، أخبرتك أني أنزع طرف أثوابي لأعلق أمنياتي دوماً.

بصعوبة نزعت طرف قميصك وعلقته صارخاً: " يا رب، ألا تكون مجنونة. "

كانت ابتسامتك في أقصى اتساع لها، والاستهزاء كما بدا لي، ظاهراً على وجهك،

ثم نظرت لي، البرود كان يسكب جرعته الزائدة في وجهي، وقلبي تجمد من فرط حساسيته لأي نوع من المزاح يتعلق بشعوره أو حاله، وقفت وأوليتك ظهري الذي قسمته الدنيا على حين من بسمة ما اكتملت، ملقية لعناتي على سذاجتي التي سمحت لي بأن أرتطم بأحدٍ خارج الجدران التي أقمتها لنفسي، كنت أركض بسرعة، صرت تركض ورائي وتناديني بأسماء كثيرة في محاولة منك لالتقاط اسمي وقدمي اللتين فرتا هربا.

ظللت تركض حتى صرت أمامي وحاولت منعي من المرور، صرتُ أصرخ بلا كلام، حتى المجانين المتخمين بسكرة اللاوعي التفتوا لنا.

صرخت بكل ما أملك من صوت بُحت فيه الضحكات العالية المغطاة بسكر الفرح المنقطع عن عالمي.

صرت تطلب مني أن أهدأ وأتوقف عن الصراخ ثم لما لم استجب،

صرخت: " أنتِ مجنونة بلا شك. "

تجمد كل شيء، وجهك الملائكي الغاضب، وجرحي الـذي كـان ينـزُ بقايـاي المتهالكـة والمجروحـون في صـدورهم حولنـا تجمدوا، كان صوتك صاخباً أكثر مِن نزيفي

أعدتها بصوت يميل للهمس: " أنتِ مجنونة "

أجبتك: " هذا ما أحاول أخبارك به "

ثم تجاوزت عني غير عابئ بشيء، ولا حتى أدمعي التي فرت من عطب قوتي.

في المساء كنتُ أجلس إلى نافذتي عاجزةً عن النوم وَعن الصحو.

منذ قدمتُ إلى هنا ولفرط الوحشة التي كنتُ أنشدها، كنت أطوي ذاتي ووحشتها الكثير من المرات في الليل الداكن كما هي؛ عل كل هذا الوجع يذوب ويأخذه الصبح، حيث يرقص الحالمون، وحيث الأمل يرسل أطواقه إلى المنتصبة رؤوسهم نحو السماء

غفوت وأنا أرسم للصباح ألوانا كثيرة، وأضع لها إطارات وأعلقها في جدار قلبي الحالم، ولما استيقظت وجدت صندوقا أبيض ووردتين بيضاوين يجمعهما شريط سماوي اللون بجانب سريري، والدهشة بأكملها تلم صداها في عيني، فتحته.

قطعة قماش طويلة بها مربعات متساوية من ألوان وأشكال مختلفة، ورد وبسمات وربيع يطلي جذوره في أجزائها، ومقص وورقة زرقاء كتبت فيها:

" قلبك النقي لا يستحق علقم هذا الحزن كله، ولا أن يطرحه الجنون فتات من دمع يكال من أعين الفردوس إلى العابرين، تمنيت ألا يكون الياسمين المعتق بصوتكِ جنوناً، ولا أن يكون النبض فيه حجراً قذف في حائط الخيبة حتى تصدع.

أعتذر إن جرحت الياسمين.

لستِ بمجنونة، الجنون هو أن يُعمى أحدٌ عن هذا القلب "

وجهي كان جمراً والناي فيه يحترق نبضاً.

عبرتُ إلى نافذتي ووجدتك تجلس على الكرسي الخشبي تحت شجرة أمنياتي، ثاقب نظرك نحو الأمام، ثم رفعتها نحوي كنت أبكي، ولما نظرت لي ولما وقفت احتدت لأسباب لم أفهمها وتيرة بكائي أكثر وضممت يديَّ إلى وجهي أخفي ضعفي وانكساري.

طلبتني للزيارة، لكني رفضت أن أذهب.

وجدتك تطرق بابي، تقف أمامي، بكل بهائك.

لما رفعت نظري إليك ظننت أني أطالع شمس الدنى.

- لم البكاء؟

- متعبة.

- مم؟

- أجزائي المبعثرة حيث لا أريد.

- هل لي أن التقطها؟

- لماذا تريد هذا العبء؟

- إنارةُ القلوب ليست عبئا، إنها سمو للروح.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

- المكان الذي تكون فيه لا يعكس من أنت بالضرورة، العالم الذي تأتي أنتَ كل يوم منه، يحمل على كتفيه المتشققتين الآلاف من المجانين، الحزانى، الفاقدين الناحبين والتائهين.

كلهم عقول آيلةٌ إلى الجنون، الباطن منه والظاهر.

أنا هنا، هناك في أي مكان شئت، لا يهم.

أنتَ حيث قلبك وفكرك، لا جسدك.

- " بابتسامة " انا لا افهم مجنونة انتِ ام حكيمة.

- في كل مجنون، حكيم ولدته الحياة بالمر والشقاء والتيه.

- متى جئتِ إلى هنا؟

- عندما عجزت عن مضغ الأمل إلى قلبي.

- ما الذي يحيي فيكِ الأمل مجدداً؟

- النور، السماء، الحب.

- أحببت مِن قبل؟

- ليس بعد.

- أتظنين أنكِ قد تغرقين في لجهِ يوماً؟

- إن قلت لا أو قلت نعم لا نفع، وكما يقال: الحب أكثر الأشياء انسياباً يسير بكَ حيث يريد دون أن يأخذ إذنك.

لسبب لست أدركه لمحت في عينيكَ امرأة وعشقا وأشباه انكسار، هذا ما خمن قلبي.

- وأنت هل سبق وذقت عشقاً؟

اعتلت ملامحك أصابع القسوة وثقبت في وجهك ستار الثبات.

- "بنبرة حادة " أنا من يسأل هنا.

أخرجت من محفظتك ورقة عتيقة وقلت: سأعود لآخذها في الغد.

واتبعت: تصبحين على خير.

وخرجت دون أن تترك لفاهي تمني الخير لروحك.

لم أفكر كثيرا لمّا أعطيتني الورقة، وللمرة الأولى والوحيدة لم اعبئ برحيلك. وشققت فضولي الى تلك الرسالة.

" خطواتك لا تزال في قلبي واضحة وثابتة، وهذه الليالي تظل تومئ لي بطيفك كلما ركنت رأسي الى كتفها القاسي مشتاقاً لكتفكِ، لا زلت اتحسس وجهكِ الندي المحنط بالزنابق على جبيني، يقودني حيث سبل عطركِ تكتب في أرضكِ أغنياتها،

شهقتك الحزينة التي أذبلها العمر فخرجت بكاء وسط جموع تقتفي أثر شعري الذي ألقيه، ثم ذاب.

ما نظرتُ يوماً إلى ردة فعل أحد وأنا أركض وراء قصائدي كنت أجرعها لمسامع الحضور على مهل حتى تخرج من قلبي لا فمي.

لم يربكني يوماً صوت أحد، أولئك المنادين الله، أو حتى أولئك الذين تئن في صدورهم أي ذكرى.

للمرة الأولى أخذني مني صوتك، نظرت أبحث عن وجهكِ الذي صار بعدها قنديلي، وتذكرين تحديداً كيف ضعت عن البيت الذي حرك الناي في أعين الفجر دمعاً.

أكملت أمسيتي تلك بما يشبه المعجزة.

كان حضوري رديئا لدرجة أن الكل غادروا خائبين، ولكن لم أكن أطلب إلا أن يمضي الوقت وأجد وجهك.

لا أريد أن اتوه عنه وأريد أن أرى كيف يبسم الحب في رسمه، أريد أن ألقي القصائد على مائه فيغدو فردوساً.

عندما وجدتكِ، ونظرت لعينيكِ، قام المستحيل من القبور التي دفنه فيها يأسي وصفق ووضع حولكِ قبساً من ضياء، لا أتوه

بعده أبداً، بادلتني النظر وابتسمتِ بسمة طرقت الدفوف لروحي.

همتُ فيكِ، وذقت كيف يكون العشق في احتراقه ولادة لأنامل جديدة تضع حملها أجمل قصائدي.

كنت أحبكِ بكليتكِ التي كنتِ لا ترين الجمال في تفاصيلها، أحب عندما تتحدثين كثيراً بكل الأشياء ثم تقطعين عن سمعي صوت الملائكة وهي تغني الوله لعقلي، " أنا كثيرة الكلام وربما تشعر بالملل"، وأقول لكِ: كلا، تابعي لأرى الفرح يسطو على حقول عجائب هذا الوجه.

كنت أراقب حركاتكِ كلها بنهم وأحفظها عن ظهر قلب.

كنت ولا زلت أكره فكرة الصور، كي لا ننسى ملامح من نحب، وتذكرنا بها صورة ما، تجمدت في ضوئها لمعة العيون وبروز البسمة.

كنت دوماً أرتب صوركِ في سماء صدري وأشعلها لأتنفس، وأحبكِ أكثر.

كنتُ دائما أتساءل أين أنا؟

حتى جئت ورسمت خارطتي كلها ووقفتِ عند نهاية العالم وقلتِ تعال.

يداي راجفتان، وأنتِ الماء الذي يكاد يفلت من بـين يـداي. أذهبي.

أن كان الحب لا يثقب مخاوفنا ويمر بنا عبرها الى غاياتنـا مـا الذي يفعل اذاً؟

أريدكِ، أحتاجـكِ وأحبـكِ، فـوق قـدرتكِ علـى التـصور والشعور.

هذا القلب الذي تهمين بهجرهِ، أغرقـهُ غرامـكِ حتـى صـار ملكاً لعيناكِ، وأطاح به الحنين لوجهـكِ، سـقياً لا يعـرف شـفاء سواك.

اذهبي إن كان الحب سهلاً هكذا، نجده ثم نلقيه علـى أمـل أن نجد غيرهِ قريباً.

الحب الحقيقي يطرق عمركِ مرة.

لا توليه ووجهي شطر الغياب.

اذهبي.

واتعبي قلبي "

إذا هذا القلب عزفت على نايه فتاة عذبة مـا، تـشبه الملائكـة، ولحن الحنين صار أنيناً يتكاثف خلف الظـل الثابـت ويـدمي فيـه الحياة ببطء وصمت.

فكرتُ وصوت سارة يخترق سمعي كما يفعل كل ليلة وينادي " محمد" أكثر مما يستجيب هو، وأكثر مما يجعل هذا النداء نومها أثقل من العمر.

إن الحب قادرٌ على أن يشطرنا أجزاءً لا تعد، وأننا مجانين عندما يعلق كياننا كله في أحد سيملك موازين عالمنا كله، ودون قصد سيحركها كيفما يشاء.

كنت حزينا بعد مرور عامين من التاريخ الذي وضعته أسفل الرسالة، كأننا فقط في الحب نسجل تاريخ موتنا الأصغر، ونظل نعد الايام على أصابع من جمر متقد الى موتنا الاكبر.

كنت أنتظر الصباح على غير عادة وأنتظر وجهك لسبب لا أعرف له حقيقة، وأتمنى لو أن الشمس تركض إلى العصر، وتظل فيه مدة أعرف فيها لم الانتظار يخترق جسدي هكذا، طال انتظاري وطال، وطال.

حتى جاء الليل ضاحكاً من قلبي الذي اقتلع أقفاله وسمح للصبح الواهم بالعبور إلى حيث لا مكان له.

كنت ذاهبة إلى نومي حيث قد تذوب ذاكرتي، وأعود من الوعي الذي فررت منه إلى جنوني، وقعت عيني على قطعة

القماش، حملتها ونزلت إلى أمنياتي، قدم تدفع الأخرى بثقل الخائبين.

علقتها وطلبت من الله برجاء لم يأتني قط " قبل أن ينتهي اليوم يا الله ".

والتفت، إذا بكَ ورائي.

رجف قلبي وصرخت خوفاً، ثم ضحكت ثم جلست على الكرسي أغالب دمعي، وأنت واقف أمامي مندهشا، باسما اقتربت ونزلتَ على ركبتيك أمامي، وطلبت أن أزيح يديّ عن وجهي وعندما فعلت قلت: " ما بكِ"؟

- أين أنت؟

- ها أنا ذا، ثم لا تعتادي على مجيئي دائماً.

صفعتني هذه الكلمة، اتسعت عيناي الباكيتان، وحدتهما ظلت تحدق في عينيك، أخرجت رسالتك وألقيتها في وجهك.

الأرض كلها كانت تجثم على صدري، أنفاسي كانت تحاول كلها الخروج في آن واحد حتى لا يفقد قلبي قدرته على النبض.

كانت تزاحم بعضها في رئتي العليلتين المتعبتين.

أتمنى لو أنها لا تحاول الخروج، لو أنها توقف شجارها في عمقي، وتصمت للحظة التي أصير فيها نجمة في السماء.

مرت ثلاث أسابيع وأنا التهم المهدئات والأقـراص المنومـة، وأحاول أن أبتلع الطعام إلى معدتي الخاوية، لكنها تفـضل التهـام نفسها أكثر، الطعام لم يكن ليستقر فيها.

كنت أتهالك وأنهار، كبيت من ورق سمح للريح أن تأخـذه أينما أرادت.

الغذاء كان يقحم في وريدي دون رغبة منه أو مني.

إذا كان هذا التـداعي الـذي أتجـرع مـرَّه سـينهي كـل شيء؛ خوفي، صراخي بصمت، لهاث عقلي إلى بقايـاه، صـوت والـديّ، شريط عمري العتيق، وصورة سارة وصوتك، أنا اقبل به وأتحمل علقمه حتى النهاية.

قدماي لا تستطيعان حمـل ثقـل روحـي، إنهـا مبتلـة لدرجـة التخمة بالبكاء والمطر ولربما بك.

الليل كان يأخذ مجـده تحـت عينـيّ، وغيمـة مـن دمـع تقـيم طقوسها في تقوس ظهري.

ممرضـتان تحمـلاني إلى الكـرسي المتحـرك، والمغـذي الـذي يلتصق بيدي كالوجع الذي لا ينفك عن صدري.

منذ ثلاثة أسابيع، منذ أن رأيتك آخر مرة، لم أتنفس إلا هـواء الغرفة البائس بندوبي أنا وسارة.

سارة غادرت منذ أسبوع وستعود بعد أسبوع اخر، تقضي هذين الاسبوعين مع أهلها الذين يحاولون اقتضام الوقت في كل مرة فيقصر، ويختلقون الحجج حتى تعود هنا ويذهبون هذا العبء عن كاهلهم، وأذوب حرقة عندما تكوي الدموع صدرها بعد كل مجيء.

أناظر شجرة أمنياتي، آخر أمنية كانت رؤياك، لم أعرف كيف سمحت للشق الذي تركته أن يملئني بالأمل، ويجعلني في حاجة ملحة لأن أخرج برأسي إلى عالم هربت منه قانعة.

قدماي الراجفتان وقفتا، بدأت انتزع أمنياتي والأغصان معها وأصرخ وأبكي، إحدى هلوساتي جاءت تزورني الآن، سقطت وجاءتني رائحة أمي، لكن هذا ما لم يخمد بكائي الذي راح يتصاعد وأنا أحاول رفع رأسي، لأجدك دوماً في أكثر اللحظات استبعاداً لوجودك أمامي.

غاب عقلي عن الوعي.

استيقظت في غرفة العلاج مخنوقة بألف حبل وأنت.

تقف أمام النافذة يداك في جيبك، كنت أحبك أكثر كلما وقفت هكذا.

أخذت نفساً لم أستطع أخذه من الكون منذ زمن، حتى تشعر أنني استيقظت، لم تلتفت.

- ياقوت، اسمها ياقوت أحببتها كما لم أظن أنني قد أفعل يوماً لكنها كانت تخاف الحب، كأنه سيسرق عمرها المبلل ويلقيه على قارعة طريق لن تعرف مكانه، لم تؤمن بقلبي بشكلٍ كافٍ.

الحب بلا ايمان هو حب ناقص؛ كالعمر الحلو لمرءٍ وحيد، حاولت بكل ما أتيت من صبر أن أخلق هذا الايمان وأزرعه بصدرها ثم أظل أرويه، حتى وإن كلفني ذاك عمري كله.

كنت أتمسك بها كفطرتي التي تظل تسعى لتجعلني أسرق من الهواء العابر أنفاسي.

لكنها ذهبت كما يذهب الحلم بعد يقظة محتمة، وها أنا لا زلت لا أريد سواها ولا أستطيع أن أهب قلبي لأحد ولا أتعب نفسي بالمحاولة؛ لأنني لا أعرف كيف أنفثها من صدري وأولد من جديد دونها.

لسنتين بكل ما مر أمام عيني لم يستطع أي شيء أن يمنحني دهشة حضورها والرعشة التي تسطو على نبض عند سماع اسمها.

هذه الرسالة كانت آخر رسالة، ولكنها أعادت كل ما أرسلته في صندوق خشبي على هيئة كلمة شعر صممته لأجلها حتى تجمع به رسائلي.

عاد دون أن يمتلئ حرف الراء بعد سوى بهذه الرسالة؛ لأنه لربما كان يعني رحيلا.

لا أصدق أنها يئست من حبنا، ثم ضاعت مني هكذا.

التفت إلي، ثم جئت تداري عينيك عني الي.

- متعبة؟

أومأت برأسي ودمعي كان يتدفق وحده.

وضعت غطاء آخر علي وابتسمت بسمة كانت تؤكد لي أنني مملوءة بخفق يتجه صوبها، ولأجلها يعلن بدئه.

- ارتاحي ونامي، أنا هنا وسأظل هنا.

آخر شيء رأيته، أنك كنت تسحب كرسياً قرب سريري وتبتسم لي.

لم أنم هكذا منذ أن فقدت كل شيء.

استيقظت، وقبل أن افتح عيني كنت أربطك وأشد الوثاق عليك في أبواب الرحيل التي أتوقع أن تعلق نفسك في غيابها في أي لحظة.

لا أريد أن أفقد نفسي مجدداً، أو أن أفقدها أكثر من هذا.

نظرت حولي لم أجدك، بعثرت الشتاء الذي كان يستعد ليعصف بي، وجعلته يظل في الخارج.

مشيتُ بصعوبة إلى النافذة، كانت تمطر بشدة، وتسقي كل الأرض سواي.

دمعة واحدة سقطت مسحتها وتمالكت أوجاعي كلها، والتفت لأعود إلى سريري وجدتك تحمل صينية وضعتها على السرير.

- صباح الخير.

رددت بلا وعي

- صباح الفرح.

أظنه الفرح الذي اشتاق أن يعتريني أجابك.

طوق ورد أبيض وأزرق، وأكلٌ كثير.

كطفلة لا تعرف إلا أن تحلق إذا مست السعادة قلبها، أسرعت إلى الطوق ووضعته وأملت برأسي وابتسمت لك.

"ضحكت" وقلت: هيا تناولي إفطارك.

أكلتُ عن أعوام، وأنت تنظر لي والبسمة لا تفارق نداك.

الوقت انسل من مدارنا إلى انتهائه.

أخبرتني أنك ستظل تأتي كل يوم، سألتك أهذا وعد؟

قلت " لا "، واتبعت أخاف من الوعود، انها أمانة أثقل من أن يحملها أحدٌ مثلي، لكني إن شاء الله سآتي، على شرط أن تنتبهي إلى نفسك ولا تهمليها.

أجبتك بالايماء، رافقتك من النافذة وأنت تهرب من المطر.

كيف تهرب من نفسك؟ أنت مطر، مطر أتمنى أن أضل في شتائه.

مرت الايام كأنها الجنة تضع بضع من بريقها في مقلي، كنت تأتي كل يوم وكنا نتكلم كثيراً.

تقرأ لي آخر قصائدك، وتخاف أن تفصح لي عن قصة روايتك.

- أنتِ ذكية لا أصدق أنكِ مجنونة وأضع احتمالات كثيرة لأن تكوني كاتبة أو شاعرة، حتماً كنتِ شيئاً ألقاً، وأخاف منه حتى لا يسحق كل ما أنا عليه إذ عرفته.

- "ضحكت " أنا مجنونة.

- لا أظن ذلك.

وقفنا وقصصنا من القماشة.

وسألتني: ما أمنية اليوم؟

- "الحب" وأنت؟

- أن أعرف اسمك.

ضحكت وقلت: حقاً لا تعرفه.

- أجل.

- لم تسمع الممرضات ينادينني به؟

- لم أرد أن أعرفه إلا منك كان بإمكاني أن اقرأه على المعصم الذي تلبسينه دائماً ولكني كبحت فضولي، ولجأت للانتظار.

- بماذا كنت تطلب ملاقاتي؟

- كنت أقول أريد رؤية صاحبة الكنزة الزرقاء، دائماً ما تلبسينها.

- هدية من صديقة كانت الأقرب لقلبي، آخر هداياها، لم أرها منذ عام او أكثر بقليل، الكل بشكل أو بآخر سيفر إلى نفسه بقصد أو بدونه، ويظل الوحيدين معلقين بفراغ يهشم أجزاءهم بلا رحمة.

ندى رحلت وغابت عني وأنتَ يا ريان ستفعل ذلك يوماً ما.

- سأحاول ألا أفعل.

- الكل يحاول ولا أحد ينجح إنها الحياة، لا عليك.

- حسناً، ما اسمك؟

- سمني ما شئت، لا يهم.

-عندما انطق اسمكِ ابتسمي.

صرت تذكر أسماء كثيرة، محظوظة الأسماء التي رسمت في حنجرتك وقلتها، تمنيت لو أن اسمي كان بينها، أنت تلفظ الأسماء وأنا أظل ارسم بوجهي ايماءات النفي حتى ضحكنا معاً، ثم ساد الهدوء.

-ضحى، اسمي ضحى

لم تنظر لي.

- دافئ.

ثم تلوت سورة " الضحى" بصوت الملائكة، رجف قلبي، وحاولت أن أجمع الشتات الذي اعتلى ملامحي عندما نهض من سبات روحي، عبثاً.

طلبت أن تعيدها لي، ثم قلت لك: اقرأها لي كل يوم.

-إن شاء الرحمن. ضحى؟

- " ابتسامة وإيماءة "

- من أنتِ؟

- عشت يتيمة منذ أن كان عمري ثماني سنوات، الموت الذي أخذ والدي لم يكن مكتوباً لي مع أنني كنت معهم وعشت الوجع باكتمال تام.

كنت قد رأيتهما كليهما وقد قضم عمرهما حتى انتهائه، في ثوان من وقت كان لي كالدهر، الذي أجر فيه أذيال حزني وندوبي العتيقة، الطريق دونهما كان حاداً جداً، وأنا ظللت وجودي كله أنزف.

- أنا لا أريد أن ألقي شوك الذكرى في قلبك، بإمكاني التجاوز عن هذه الأحداث.

قاطعتك.

- أرجوك، أريد أن أحكي لك، أريد أن أحكي لأحد غير سارة.

- تفضلي، أنا معك.

- كان يوم الجمعة خرجنا في رحلتنا كما نفعل كل جمعة في الربيع، أذكر أنها أجمل رحلة قد جمعتنا، أخاف أن أشعر أن يوما ما هو أجمل ما قد جمعني بأحدهم؛ لأني أشعر أن ذروة الجمال والفرح تسبق نهاية ما وفراقا ما دائماً.

كانت الخضرة أطول مني بكثير، لعبت فيها مع أمي وأبي لعبة الاختفاء وعندما جعلوني أتوه، لم أظن أن هذا كله كان تحضيراً لاختفائهم هذه المرة دون لعبة،

ودون ضحك وبكل جد سيحدث، كنت أفقد قدرتي على الوقوف والخضرة التي تحيطني حد الاختناق تعصر من جلدي اضطرابه، ظننت أن الكون يسحب أنفاسي، رقبتي ضيقة على الهواء وصوتي الذي يريد أن يصرخ شل من حمى الخوف التي صارت تلجمني رغم ضعفي، وعيناي سماء الشتاء كما تقول عنهما أمي دائماً، سيهطل الشتاء منهما يا أمي، شفتي كانت تعد نفسها لأن تتقوس نحو الأرض، ثم كل واحد منهما من جهة راح يضمني ويحتضنني ضاحكا، لم يدركا الرعب الذي كاد يشل أركاني، رغم ذلك عشت فرحاً لم أشعر يوماً بمثلهِ.

لم أعد أشعر بشيء سوى قبلاتهما وضحكاتهما ووجهيهما، في تلك اللحظة الماسية من العمر تمنيت لو ظللنا هكذا لو لم، لو لم.

قاطعني اختناقي بالهواء الذي لا يحمل لي أكسجيناً يواسي ضيقه ويجليه.

ركضت الي وصرت تنادي باسمي: ضحى، ضحى لا عليكِ أنا هنا، ضحى ابقي معي، غبت عن الوعي.

الوحدة والحزن والفقد واليأس، أسوأ المرض وأوجعه، وأنا هشة لدرجة أن كلمة قد تطرحني مفطورة الجناح عاجزة عن التحليق في السماء، حيث الله والجنة وأمي.

استيقظت وبحثت عنك، كنت على هيئة ورقة زرقاء تقبع قرب سريري بقرب الكثير من المهدئات؛ لم يكن ليجدي معي شيءٌ سواها.

أخذتها، فتحتها، كتبت فيها:

" ضحى، غادرت في الصباح مضطراً.

الكل يفتقدني وأنا لا أفعل، أنا أجدني رجوتكِ كوني بخير، لا تتعبي قلبك أكثر. ظلي ضحى، كعينيكِ وبسمتكِ، أعود قريباً وألقاكِ.

ريان "

بلا وعي مني ضممتها وضممت معها رائحتك التي علقت فيها، وضعتها في جيب قلبي وعبرت بها ثقل النهار.

أتيتني قبل المغرب بقليل تحت الشجرة كما عهدتنا، تركض جئت.

- ما أمنية اليوم؟

ناولتك قطعة من القماش.

أغلقنا أعيننا وتمنينا.

سألتك: ما أمنيتك؟

قلت: سر "وضحكت".

لحقتكِ ملحة بسؤالي ثم التفت إلى حاملاً علبة معدنية موردة بالأزرق والأحمر.

كنت أعشق اهتمامك بالتفاصيل، وانتقائك الفريد وماكينة الأناقة في عقلك التي تمدك بكل هذا البذخ.

قطعٌ من الشكولاتة الفاخرة وضعتها لي، لم أكن أعرف أهو الحب الذي دفعك لفعل هذا أم الشفقة؟ أم ثناءٌ لأني أعطيكَ من بحر وقتي قليله؟

تجاهلت كل هذا وأردت أن أمسك باللحظة السعيدة ولو لمرة وأعيشها كلها، أتجرع منها كل البهجة.

نضيع حياتنا عندما نرسم الآلاف من خرائطنا الذهنية البالية، والتي قد يحملها القدر لنا واقعا أو يمر عليها غير مكترث، أريح عقلي وأعيش لو لمرة لحظة لكل العمر، قد تكون هناك لحظة سنعيش جمالها بما يشبه الفردوس ولن تعود ولو حاولنا، ولن نستطيع سرقتها من قطار الزمان الذي يمر مرة واحدة وإلى الأبد.

أكلتها كلها ونسيت أن أعطيك ذوقاً ولو واحدة منها.

اعتذرت منك كثيراً وظللت تبتسم عاذراً فرحي الطفولي.

مرت سارة أمامنا يبدو أنها فرت مجدداً من الممرضة المشرفة لحقتها وناديتها، وكنت تلحق أنت بي التفتت لي ونادتني " محمد" ولما وجدت وجهي عبست، كأن الجحيم هو وجهي وحمم تلسع الصبر الذي نفد من صدرها عندما جار الفراق على قلبها

عبرتني إليك – رأيت محمدا؟ مر من هنا؟ كنت ألحق به لكنه اختفى. أرجوك أريده،

وبدأت تبكي.

أخذتها بصعوبة بالغة إلى غرفتنا كما نرتاح دائماً، أعطوها مهدئا ونامت وهي تتمتم اسمه.

عدتُ إلى كرسينا؛ كأني أريد أن أزيل عن كاهلي هذا الغبار الذي نختبئ في قسوته كلما هرع الوجع إلى عقولنا وأسرف نزفه في داخلنا.

أريد أن أبكي، أريد أن أخلع عن صوتي الهدوء الكاذب، أريد أن ينفجر ضجيجي في فضاء هذا الكون الضيق، إلى الآن لا أعرف لم كوننا الذي يغمره الاتساع المديد ضيقٌ على صدورنا إلى هذا الحد.

وجدتك هناك لم ترحل بعد، لم تقل شيئاً عندما جئت أجلس بقربك.

-سارة تشاركني الغرفة منذ أن جئت إلى هنا من خمس سنوات، أشعر أنها أختي التي ولدت من رحم جراحي، جاءت لي لأجد أحدا أعتني به بينما أفر من النكران، وأتواطأ مع عقلي على أن أفقده وقتما أشاء وأسترده وقتما ما أشاء.

جنت سارة لأني كما أعلم فقدت محمدا ومات، كما تظل تقول لي " في غمضة عين"، تحمل صورته دائماً، اهترأت جداً وأصبحت بالية وفقدتها مرة، وأقام يومها الجنون أعظم حفلاته في كيانها، شعرت أن غضبها وحزنها سيقتلعان الدنيا، كنت قد حفظت شكل محمد لأنها كانت تظل تريني صورته.

رسمته لها، استعملت كل قدراتي لأذكر كيف أمسك قلمي من جديد بعد غياب وأرسم.

رسمته، وكانت هي كأم يعود لها طفل ظنت أن الحظ العاثر خطفه من ذراعيها.

لم أرها تبتسم هكذا والفرح باستحياء طرق أبواب صدري سمحت له لا واعية أن يدخل، سيغيب طويلاً قلت فليأتِ كلما سنحت له الفرص القليلة أن يفعل.

- درست الفن؟

- نعم.

- اريني ما رسمتِ لسارة.

تسللنا إلى كف سارة سحبت الصورة بحذر بينما تقحمها الأحلام في زوايا العمر المنسية التي لن تأتي.

- أنتِ عبقرية كنت أعرف أنكِ لستِ مجنونة، هل أقمتِ معرضاً صغيراً يوماً؟

- الرسامون أكثر من يصابون بحمى الجنون صدقني؛ إنهم الاكثر جنوناً واندفاعاً، ولكنني لم أصل إلى المعارض بعد ولن أصل كما انني لم أمارس الرسم منذ مدة طويلة.

- احلمي لا شيء لنخسره إن حلمنا.

- بلى، نخسر الأمل الذي بدأنا به الحلم إن اختفى.

- ابدأي حلمك بالإيمان دوماً، لا يضيع الايمان يوماً ولا يُخسر ما دام بالقلب، لن يضيع منكِ إلى الأبد.

ابتسمت.

- تصبحين على ضحى القلب يا ضحى.

- وأنت من أهل النور والايمان يا ريان.

أنتَ لا تنسى وتغدق على قلبي خلاصات هذه الذاكرة الزاخرة بالتفاصيل وتملأني دوماً بالأمل؛ الأمل الذي قد يغرقكَ يوماً إذا ما بلغت حدا منه، وعدت حيث خوفي يركلني بالزوايا المكسورة، ويحتجزني هناك وقت لا أعرف متى وكيف سينتهي.

العاصفة التي بداخلي والتي ستكون مخيبة لروحك؛ أخاف أن تخرج وتقتلع كل شيء.

في مرحلة ما من هذا العمر اللحظي الذي نعيشه يقف كل شيء نحبه على الحواف، وينتظرنا لكي نمسك به، فإما أن يختفي في قعر صنعه خوفنا، وإما أن ننخر بالحب هذه الجدران المتصدعة التي تقف بيننا وبين ما نسعى إليه.

أريد أن أحبك، لا أن أجن في وجهك، وأريد أن تحبني لا أن تهرب يوماً من صورتي.

أريد أن أصفع خوفي في قعر النهايات وألصق ساعات وحدتي الطويلة على جدران لا ترى وتختفي كلما عبر قلبها النسيان.

أريد أن امتلئ بحياة ظللت أهرب منها وكلما أوشكت على الاقتراب منها خنقتها بيأسي.

قطعت سارة بصوتها المبحوح حبل الصحوة الذي أعلقه على أواخر عقلي منتظرة مشيئة الله أن أصحو وأن أحلم وأن أصاب بالأمل.

ننزل إلى قاعة الإفطار مع أن قلوبنا ممزقة، نعطي معدتنا حاجتها لتكمل معنا الطريق الوعر، حتى نقول كفى وينتهي كل شيء ونحو الله نذهب حيث نسترد كل شيء؛ أحلامنا الكثيرة، أحباؤنا الذين راحوا إليه قبلنا، والذين ثقبوا صدورنا وعبروا إلى غيرنا، يُبدلون عند الله بما هو أجمل من الفجوة التي لم تسعها أيدينا كي نوقف نزفها ونستر أنينها عن وجه الحياة.

كنت تقف وراء الزجاج المطل على الحديقة وتشير لي أن آتي، ركضت بأقدام من بهجة إلى قلبك، لا أعرف أهو العيد؟

أشعر أنه العيد كنت أركض هكذا لوالدي عندما كانا يريدان أن يعطياني فيض وجودهم أعياداً أعجز عن عدها.

أنا أحلق معك يا حبيبي أولد من جديد، وأكون في ولادتي هذه طفلتك أنت.

وصلتك وابتسامتك كانت تغرقني بالحب الذي أحاول أن أجعل رأسي فيه أعلى من مستوى مائه، حتى أستطيع أن أنجو

بعقلي ولا أجن مجدداً؛ أما عن قلبي فذائبٌ عاشق يلقاك على أمل، ويودعك على أمل أن تظل له وتحبه.

كنت تحمل صندوقا كبيرا طلبت مني أن أفتحه، ولما هممت بفتحه ناديتني وقلت: " ضحى أريدكِ أن تعيشي من جديد وأن تجعلي الحزن وراء ظهرك، وأن تباعديه بأميال لا نهائية، أنزلي عن ظهر هذا القلب عبء اليأس، أرجوك أنتِ تستطيعين أن تكوني قمراً إن شئتِ أو شمساً أو ضحى "

- سأحاول بكل ما تبقى من هذا القلب أن أفعل.

شعرت بوجهك يرتعش عندما أنهيت حديثي بابتسامة، ويحاول أن يلقي أوردته المشتعلة في مكان آخر لا يوجد فيه ظلي.

فتحت الصندوق في البدء تطايرت بالونات كثيرة متدرجة بألوان الأزرق وقلت في صدري للمرة الأولى " أحبك ".

دفتر مخصص للرسم مع المسند الذي يحمله وأنواع كثيرة من الفرش والألوان الممتلئة بالحياة تقبع في هذا الصندوق، وقلبك وعطاؤك ورائحة جمالك أيضاً.

- أخبرتك أنني تركت الرسم منذ زمن وأعجز عن البدء مجدداً، لقد مضت مدة أطول مما أتذكر، ولا أريد ان أعود لحلم دفنتهُ

عندما ارتحل عقلي جنونه واعتلى مسرح هذا المكان، رغبة منه وبكامل إدراكه المختبئ خلف أحزاني.

غير مكترث لحرف قلته رحت تنصب المسند وتخرج الألوان وتدعوني لأن أقف أمامها لأرسمك.

- نسيت كيف أرسم.

- كنتِ تحبين الرسم؟

- جداً.

- إذا ما نسيته، لا زال يملؤك؛ الأشياء التي يحبها المرء والتي كانت تملؤه بالأمل والشغف والإنسانية تظل تتولد في بواطنه وتنتظر النبض الذي يشعلها فتخرج من جوارحك أجمل ما قد يخرج يوماً من روحك.

اتفقنا أن تدعي اليأس في مكان بعيد عن قلبك، هيا ارسمي.

قلت هذا وأنت تستعد لأن تُرسم، بسمتك كانت تذيب قلبي يا ريان أكثر من أي شيء.

إنني أخافُ أن أسقط هذا الجمال الذي خلقه الله على ورق.

جلست أمامي واثقاً بقلبي أكثر مني، مؤمناً بيدي المرتجفتين المرصوفتين على أعتاب النسيان كتلاً من صمت

تشعله أنت بهذهِ البسمة، بالياسمين المتساقط منها بعيونك ورسمك تملؤني بالمستحيلات.

رسمتك بما يقارب خمس دقائق وعندما قلت لك انتهيت قفزت إلى متعجباً من السرعة تلك، لكنك بنفس الوقت كنت كطفل ينتظر فرحه المعلق بشيء ما.

صدمت بما رسمت ومتعجباً كنت.

قلبٌ أزرق لامع، وغيومٌ بيضاء تحجب جزءاً من بريقه، وكلمات تمطر منها

روح، أمل، ألق، فرح، نور، إنسان، خزامى ومطر.

ضحكت

- لا أفهم كيف تكون هذه اللوحة أنا.

- هذا قلبك، مثل السماء؛ واسعٌ رحب، مضيء، ويحمل آلاف الأشياء في امتداده.

- والغيم؟

- غموض الحزن في بسمتك وما تمطرني دوماً به كلما حللت على قلبي هو الكلمات.

- ضعي اسمكِ عليها.

وضعت اسـمي أسـفلها، أخـذتها مـن الـدفتر ووضـعتها في الحقيبة التي تحملها.

-كنت أنزل إلى الشارع أحياناً وأجلس على الطريق أسأل المارة إن كانوا يريدون أن أرسمهم هكذا دون مقابـل، بعـضهم يبـدي اهتمامه وآخرون يرمقونني بنظرة سخف.

كنتُ لا أرسمهم بل أرسم ما اراه في البقعة البيضاء الثابتة في قلب كل واحد منهم أياً كان.

الفرح كان يرسم أجمل لوحاته في وجـوههم والبـسمة تتـوج الحزن هباء مقابل اللفتة الجميلة.

هذا ما كان يجعلني أتجرع الأمل وأملأ نفسي به حتى أحتمـل الوقت الذي أعود بـه إلى بيـت عمـي وأرى كـم الإسـاءات مـن زوجته في حلقي المهترئ، الذي ظل يبتلع سـنوات عمـري حتـى أُهلك وضاع صوته.

غير عابئة بصراخها أني تأخرت رغم أن المغرب بعد لم يحـل، وصراخها على ثيابي الملطخة بالألوان التي أجيء بها كل يوم وأنها لن تسمح لي بأن أسرف الماء الكثير عليها بما أنني لا أدفع ثمنه.

أذكر آخر ليلة لي عندهم، عندما دخلت غرفتي، وصـببت جـم غضبي على الباب الذي راح صـدى غـضبه يهـز جنونهـا، وحينهـا

دخلت غرفتي وراحت تمزق لوحاتي وتلقي ألواني من النافذة وتمرغ في وجهي لون الحلم، وتلقيني للطرقات يتيمة الأهل والأمل.

ذهبت إلى ندى على استحياء كاد يمزقني، رضي أهلها أن أظل عندها حتى أتدبر أمري.

أربع وعشرون ربيعاً والأحلام تقص حتى آخرها، والدروب تنهار والذكريات تختفي وتضمحل، وصوت اليقين بات يهمس، وكل يوم يبعد مسافة يأس عن صدري.

اليأس كبيرٌ جداً وصعبٌ جدا، ما إن يضع جذوره في القلب حتى يصل عنان السماء.

ذهبت إلى منزل والدي الذي كانت تعيش به كائنات كثيرة غير البشر، والصور العتيقة، وملابسي الصغيرة التي لم ترض زوجة عمي أن تحملها كلها، وملابس أمي وأبي، روائحنا المرتشقةُ على الجدران الحزينة، كانت تحمل قلبي إلى وجعه.

شهرٌ كامل من العمل الذي لا ينقطع جعلته مكاناً يتسع لقلبي وأحزاني وخيباتي.

- حاولت إذا الوقوف على قدميك.

- نعم، لكن لم يكن لي أقدام، وحدها الوحدة التي كانت تحركني من مكاني مضطربة خائفة حائرة.

- -فتاةٌ كأنتِ. لم يحبها أحد؟ ويملأ وحدتها نبض؟

- ربما، أنا في الحقيقة لا أعلم، كنت أقف إلى جانب الحب إن اعترض طريقي ولا أقف بوجهه ولا أجعله يتخلل قلبي الدامي؛ كي لا يهلك أكثر.

توقفت عن الاتصال بالجميع وهربت إلى هنا، كي أرحل قبل أن يرحلوا، وأبدأ الغياب الذي اخافه، ولا أظل أنتظره لكي يُذبلني، عندما تخاف من شيء عليك حتماً أن تعيشه لتعرف أننا نظل أحياءً مهما امتلأت قلوبنا بالفواجع الكثيرة، لا شيء يفقدك حياتك سوى قدرها، ستدرك أننا وبكل بساطة سنقدر أن نعيش مع النزف والبكاء.

لا أريد للفراق أن يقتلني كما قتل أبي.

- ألم يمت والدكِ مع أمكِ بالحادث؟

- بالفعل مات قلبه، لكن جسده ظل يصارعُ أشباح الفقد طويلاً، ألم تملأك الكآبة بعد؟

- لا أرجوكِ تابعي.

- عندما عدنا من رحلتنا كان الصمت يخيم على هواء السيارة على غير عادة، لم أفهم حينها أنه هدوء الموت الذي كان يزحف نحونا، أمي كانت بين الحين والآخر تطالعني بابتسامتها العذبة،

كأنها تحفظ ملامحي كانت تضع حجة لطلاتها الكثيرة على قلبي بقطع البسكويت الذي كانت تطعمني إياها رغما عني، كانت صورتي آخر ما رأت وكانت بسمتها آخر ما رأيت، عندما جعلني الصوت أغمض عيني أكثر وبدأ يأخذني تطايري وتخبطي بالحديد الذي اقبع في قلبه.

كنت آنذاك أتلقى أول صفعات الألم الذي سأظل أتجرعه لعمري كله.

أذكر أني سمعت صوت أبي ينادي "سلمى، سلمى" وصوته كان يقطر رعباً ودمعا!

لم تكن أمي تجيب، وبعدها أنا كنت قد غبت عن الوعي.

استيقظت والدم يملأني وكثيرٌ من الأشخاص يتراكضون لاسعافي، بشيءٍ من الخوف والأسى الذي لا يريد للواقع أن يشرئب في صدري جرحاً أبدياً، صرت أنظر حولي أبحث عن أمي وأبي بين الوضوح وعدمه.

رأيت أمي التي لا تشبه زهو أمي وقلبها الحرير يناضل لكي يُمسك بحريته للعيش، ويجاهد كل هذا النزف لأجل بسمتها، حتى قلبها يريد أن يعيش داخلها أكثر وأكثر.

جهازٌ ما كانوا يضعونه على صدرها ويجعلها تحلق لوهلة، وأجنحة الملائكة المزروعة في كتفيها تشدها إلى الأعلى.

حاولت أن أرى أين أبي لم أجده فصرت أناديه وأحاول أن أنزع كل تلك الخطوط المغروسة في جلدي والممتدة في دمي والممرضة تحاول تهدئتي.

قرب أمي صدر صوت طنين نظرت مسرعة بلا وعي، وأجرُ رغم صغري أحمال قلبي المنتظرة.

يبتعدون عنها، يناظرون بعضهم بأسىً، يطفئون الجهاز ذاك الجهاز تحديداً أطفأ قلبي للأبد وأطفأ السعادة ولون الكون بالرماد.

لا أذكر شيئاً بعد ذلك يبدو أنى غبت عن الوعي مجدداً منذ صغري وأنا أغيب عنه وعن الحياة؛ لأنني وبكل بساطة لم أعد أحتاجها بعد الذي صار ولا أريد أن أفعل.

عندما تحسنت لا أذكر بعد أي يوم من الحادث، لم أرَ أمي ولا أبي ولا أحداً.

رضوض كثيرة كانت تملأ جسدي الصغير، يدٌ مكسورة وجروح أكثر، أعمقها ذاك الذي قسم قلبي نحو نحره نصفاً يعيش، ونصفاً آخر ينتظر مأتمه.

أرشدتني الممرضة إلى غرفة أبي، الذي كان يضع يده على خده ويناظر الأرض الذي يمثل وجوده فوقها الآن تجرعه لخيباته وفقده والنكبة التي حلت بعمار قلبه الذي صنعته له أمي بما يقارب ثمانية أعوام وأكثر من الحب.

عندما ناديته ناظرني وانفجر باكياً، تمزقت روحي وكبرت أعواماً عرفت كيف يجعلنا الفقد متساوين في الحزن والنحيب، وأن العاشق الساكن فينا سيمزقه الفراق غيماً لا يعرف إلا أن يمطر.

فرد يديهِ لجسدي الصغير الذي كان يهرمُ كلما اقترب من صدره الدامي ضمني اليه، التصقنا لدرجة أني شعرت روحي فيه وروحه فيَّ، ثم نطق " ذهبت "، ووسط صوت الراجف نطقت " أعلم".

كان السكون الذي يحاول مغامراً أن يمسك المكان بيديه اللتين لا تنشقان ضجيجاً لولا البرهة التي جعلت البكاء بحراً لا يهدأ موجه.

شهران لنقل عامين، لنقل عشرين، لنقل ألفا.

المهم أنهما لم يكونا لقلبي وقلب أبي شهرين.

يدي تمتثل للشفاء؛ على عكس روحي، لحية أبي كثيفة جداً، وجهه شاحب كيوم مغبر واليأس نوتة كمان حزينة تلتصق بجبينه.

كان يضعني كل يوم في حافلة المدرسة، صديقاتي يخبرنني كم هو مرعب شكله، كان يقبلني دوماً، ويخبرني عن الأحلام بينما ننتظر الباص، وإذا كان هناك غيم نحكي على شكل ماذا نراه.

في أواخر هذين الشهرين كان كل شيء في صدره يتراجع، رغم أن الحزن والزمن يتعتقان ويمضيان.

صار يخرج معي للحافلة في آخر دقيقة على عجلة من أمره، يلقيني ويمشي شارداً، وعندما أعود من المدرسة يطلب طعاماً لي ولا يأكل، يظل يجلس على أريكة أمي المفضلة ويتأمل الفراغ، وفي كل مرة أسأله ماذا تتأمل أو ماذا تفعل؟

لا ينظر لي ولا يجيب، أجلس أمامه، أحل واجباتي وحدي بصعوبة على طفلة تعودت أن تكون أمها سندها، وأقرأ القصص التي كانت تجمعها أمي لي.

ينظر لي كلما شعرت أني لمستها، يضحك ويضحك ويعود إلى هناك، عندما آخذ قصة منهم أكون فقط في ذاك الوقت على يقين من أن أبي سيبتسم.

كانت تأتي خالتي مرة في الأسبوع يفتح لها الباب ببرود شديد لا يلقي عليها التحية، فقط ينادي " سلمى أختكِ هنا ".

لا أحد يجيب يداري دمعه عن القادمين، ويظل مكانه، حيث أمي كانت تنتظره كل يوم ليأتي وتكتب أو تقرأ وتنسج لنا دفئ يديها في قطعة ما؛ لشتاءٍ ما.

أفتقدها وجداً؛ لكن طفولتي وعدم إدراكي الكامل للخسارة كانا يجعلانني أرغب بالعيش، وأنا أعرجُ الآن إلى قطب الحياة بينما أبي حتماً يتنفس حياته في قطب الموت.

إنه يذبل ويشيخ، كحديقتنا، كان يصرخ كلما وجدني أحمل إبريق ماء لأسقي وردها ونباتها ويقول: " أمك ستفعل"، لأحاول أن أذكره أنها ماتت ليعاود نطق ذات الجملة.

مؤخراً بدأ أبي يأكل، وبدأ فقط يضحك ليمنع الطفلة اليتيمة فيَّ من الانهيار.

يصحبني إلى سريري ويقرأ لي قصصا ويقبلني ويظل يضمني حتى أنام.

كنت أظن أن الضحى قد عاد ليفضي بنوره إلى سريرة أبي المنهكة.

في أحد الايام، أيقظني وهو يضمني ولحيته محلوقة ووجهه مشرق وثيابه مهندمة، كان يضحك ويغني وهو يعد لأول مرة

الفطور، وبكل الفرح تناولناه معاً، انها الحيـاة تتـدفق في أوردة هـذا البيت مجدداً.

خرجنا قبل وقت من قدوم حافلة المدرسة وتحادثنا، مضت أيامٌ طوال منذ أن تحدثنا هكذا، أخبرني أنه يحبني جداً وأني بعد أمي أغلى نعمة على قلبه.

- سألته لما بعدها؟

- . لا أحد كأمك يا حبيبتي، وأخاف أن أحب أحداً كما أحبها هـي، لا أريد ذلك، على الرغم من أنك ستغدين عندما تكبرين صورة أخرى عنها، إلا أنه لن يستطيع أي حبٍ أن يجاري حبها في قلبي، أتفهمين؟

- " ابتسمت " يوما ما سأفعل.

وضع في يدي ظرفا وطلب مني أن أعده بأن لا أفتحه إلا عندما أكبر ووعدته، قبل جبيني وصعدت إلى الحافلـة، ودعتـه آخـر وداع وكان آخر ما قاله لي أحبك.

- لم تريه مجدداً؟

- لا.

- مات؟

- لا أعلم، فقد اختفى هكذا، رحل ولم يعد، لا أدري هل مات؟ هل هرب مني ومن صورة أمي في وجهي؟ أعلم أنه اتخذ سبيلاً إلى الفراق الذي يبتلع في دوامته كل أشيائي.

- حسبته مات لأنك ذكرت أنكِ يتمية الأم والأب.

- اليتم لا يحققه الموت، بل الرحيل والغياب بكل أشكاله.

- هل فتحت الرسالة؟

- في اليوم الذي أتممت فيه صيانة بيتنا.

أعطيتك الرسالة وابتسمت لك، قلت لك دوري الآن لأريك رسائلي، دائماً ما كنت أخبئها في جيبي العلوي الايسر قريبة من قلبي تحاول أن تمنحني آخر النبض الذي يوقف لبرهة أطول من سابقتها احتضار هذا القلب.

غادرتك، لأول مرة أغادرك دائماً ما تهم أنتَ بالرحيل لفرط التعب فعلت، وكنت أفعل كما فعل أبي، أهرب من أوجاعي.

يبدو أنني ورثت هذا عنه، أبي الذي ظللت ألومه على لوعة الوجد التي جبلها في هذا الصدر الواهن الطفل الذي تركه يبتلع موته المنقوع في وجه عمي وزوجته، وغربته المريرة عن حضنه وحضن أمي.

لا شيء، فقط بعد كل هذا الحديث أريد أن أنام ولا أذكر شـيئاً، لا أمي ولا أبي ولا أنت.

أريد أن أنام بلا حب، وبلا وجعه الذي يتصببُ أرقاً على جبين الفاقدين، وعلى الجفن المتصلب ألمه، يغرق نفسه في عوالم النوم أمـلاً أن يذوب حزنه في حرية الأحلام.

" الليلة، ككل ليلة قلبي مفطور، وشظاياه تجرحني في عمقي حيث أخبئ كل ما يجعلني قادرا على الاستيقاظ وحملك.

قدرتي على الحياة مخدوشة خدشاً يجعلها شبه مستحيلة، والمرآة التي كنت أقف أمامها ممزقاً، ويلملمني حبها المبتسم لي من الوراء؛ تهشمت عندما راح صوتها وراحت صورتها.

الآن لا أملك صورتها أو حتى صوتها لأصدق أنني موجود.

أظل أرجف يا صغيرتي كأنني ألقيتُ في عراء الحياة البارد فجأةً، يداها لا تطوقانني بالدفء ولا تسقيان أحلام الضحك المنسية في فؤادي.

روحي لا تتسع لدنيا، أمك ليست فيها.

كان يناديني الكل لأعبر فيء خيالها الملائكي نحو غدٍ خالٍ منها أمضي قدماً وحدي فيه، لكنهم كانوا كلما الحوا علي ابتسم ظلها، ابتسامة تعيدني إليها، كطفل يعود لأمه لو خير بين دمى الأرض كلها وحضنها.

ستدركين يوماً معنى أن يصنع منكِ الحب شخصاً آخر، ويقولبكِ في قالب من يهوى قلبكِ، ولن تعودي بعده الإنسانة ذاتها، ولن تكوني قادرةً على الاتساع في أي مكان غير وطنك الذي أصبح هو.

لا أريد أن أتركك، لا أريد أن أفعل، وأعلم أن أمكِ الآن غاضبةٌ مني جداً لأنني ألقيكِ في طرقات الحياة وحيدة.

لكني لا أطيق أن أراها في صورة أي أحدٍ كان، حتى أنتِ.

أعلم أنكِ الآن تقرأين ما أكتب وأنتِ فتاةٌ فائقة الجمال كما كانت هي، عيناكِ اللوزيتان، شعركِ الفاحم، وضحكتكِ البلسم، عندما تبكين وعندما تفرحين، وعندما تنامين متعبة وعندما تجلسين بصمت الملائكة، تكونين هي، كأن الله وضع روحها فيكِ.

أحببتها نقية وعلقت قلبي في الوجه البدر الإنسان.

أذكر أنني عشقتها أولاً لأنها كانت بقلبٍ رؤوف وكانت مليئة بالمبادئ السامية، كوني هكذا كوني كما كانت.

لا أعرف إن كنت سأعيش أم سأموت.

ولا أعرف إن كنت سأمضي قدماً يوماً أو سأظل ملتصقا بأحزاني هكذا، لكني أعرف جيداً أنني لن أغادر أملكِ أبداً سأظل أحيا بذكراها، وأظل أغني لها كما اعتدنا كي تنام وأظل أقرأ صحيفة الصبح معها وتحتد أفكاري مع أفكارها، ونشاهد أفلامنا المفضلة ألف مرة من غير ملل، وتعزف لي البيانو حتى أقرأ.

حزينٌ أنكِ لن تشاركيني إطار حياتي ذاك؛ لكن لا أحد يستطيع أن يعيش مع طيف أمك كما أفعل أنا.

أحبكِ جداً، وآسفٌ جداً، ولا شيء على وجه البسيطة قد يكفي لأكفر عن ذنب رحيلي عنكِ؛ لكنني أعجز من أن أرعاك وإن الذي تملكني من الفراق وكبلني في جنون لن تستطيعي معه صبراً.

ملاكي، انطلقي في الحياة حيث تجدين نورك ومتى ما وجدته. علقي قلبكِ في سراجه. "

عدت بعد ثلاث أيام من الوقت الذي أعطيتك فيه الرسالة، لم أكن أعد الايام لأني أنتظر؛ بل لأعتاد الرحيل الذي يرسم نفسه عنوة في أكف العاشقين، ولم أكن أقف على نافذتي أرقب الصباح وضياءك لأني أنتظر أيضاً؛ بل لأقتل عداد الملل الذي صار أكواماً تذبح صدري.

إذا أنت خلفي الآن هذه رائحتك، وهذا قلبي الذي صار مجنوناً يقفز، وهاتان قدماي تقاومان لهاث روحي نحوك، وصوتك الذي يغمرني بالعبث عندما نادى " ضحى ".

لم أجب، ثم نادى مجدداً، وأيضاً لم أجب.

كانت دموعي تحجب صوتي المهتز عن مدى انصاتك، خطوك كان يتجه صوب سرير سارة التفت مسرعة، نزلت على قدميك، وقلت لها: " هذه الوردة من محمد".

لم تكن السعادة وحدها التي غمرت وجهها الهزيل، بل الأمل والحياة والنور والصحو.

ضحكتها لم تشرق هكذا قبلاً ولم يجبر الكسر المتصدع في صدرها منذ جئت أنا أحد، إلا تلك الوردة وتلك الرقة التي صاغت إنسانيتك بتلك البساطة.

أشرت لي لنذهب خارجاً، تحت الشجرة التي صارت شجرتنا التي تخفي ظلنا عن الشمس؛ حتى لا تفصلنا الظلال ونظل واحدا.

بعد صمت أعدت لي رسالة أبي.

- شعرت بكل حرف صاغه والدك في تلك الورقة، جعلني أدخل في دوامة الحب الذي خسرته رغماً عني كما والدك.

كنت متعباً لذلك غبت ثلاثة أيام، أنا لا أحب أن أحكي أنني متعب، أكره بكل الأشكال أن أظهر ضعفي وهواني لأحد، لكن ياقوت كانت الشيء الوحيد الذي جعلني أنهار وأصبح أشلاءً لا تعد ولا تحصى، واعتزل الدنيا التي أحببت أن أعيشها، كسرت

وعدي لنفسي ألا يقتل هذا القلب شيء، وقتلني حبها وأنـا أفـتح ذراعي على أكملهما له.

لكن ياقوت لم تمت، ظلت أمـامي بعيـدة قريبـة لا أنـا أصـل إليها، ولا هي تأتي إلى والحب يلقي بخيباته كلها في صدري لم أكن أتخيل أنني قد أهيم بأحد كما همت بها.

لم تكن بشراً، ولم تكن ملاكا، كانت شيئا أعشقه حينـاً وحينـاً أبغضه، وهذه المشاعر الخليطة كانت كفيلة لكي تجعلني أذوب.

أظن اننا نصل لقمة هيامنا باحدهـم عندما نبدأ نحبه ونكرهه في آن، تحبينه لكـل شيء فيـه، وتبغـضينه كلـما دفعـكِ بعيـداً عـن رائحته؛ لأنه يحرقكِ شوقاً وانتظاراً بما لا تطيقين.

كنت في أحد نقاشات لأحد الكتب، كانت تجلس في المقدمـة وأنا خلفها، لم أكن أعرف أنها هي ذاتها الفتاة التي انفجرت باكيـة وأنا أقرأ قـصيدتي، شـدتني كـما لم يفعـل أحـد فكرهـا وثقافتهـا، وأسلوبها الذكي بالحوار واستخدامها المتقن للغـة كأنهـا تغنـي لا تتحدث، النفس الطويل الذي تستطيع أن تأخذه في سبيل اثبـات وجهة نظرها.

انتهى النقاش والكل وقف ولكنها لم تقف، عبرت بين الجمع لأجدها على كرسي متحرك تنتظر هي وصديقتها أن يخرج الجميع ليفسح لها الطريق.

تفاصيل جمالها وحجابها الكامل الأنيق وبسمتها التي لا تنفك تغادر وجهها شغلتني عن إعاقتها، ولم أعر الأمر أي أهمية.

كانت الشمس التي تحجب بنورها القمر والنجوم، فور أن تعلن للدنيا إشراقها.

التقت أعيننا لكنها لم تلبث أن غادرت مداها، ها هي تستعد لأن تخرج من القاعة وأنا لأول مرة لا أعرف كيف أخطو خطوتي الأولى وأنا أشعر أنني أتجمد في مكاني.

القدر أحياناً يربطك برعشاتك ويضعها أمام ناظريك مرة أخرى، كي تحاول أن تمسك بها وتمزجها في روحك ثم تحاول أن تتجلى حيث قلبك يقودك.

مضى أسبوعٌ وأنا أحاول أن أخرج من قلبي رائحة صوتها.

دخلت المصعد متوجهاً إلى مكتب الجريدة التي أعمل بها، أحمل أوراقي المبعثرة وأحاول وضعها في حقيبة لا تتسع سقطت مجموعة منها وناولتني إياها.

- ياقوت؟

- أجل، ياقوت.

كنت كمن صفع قلبه ولم يعد يشعر بشيء، وجهي تيبس أمام صورتها وهي تنادي " أستاذ"، صوت المصعد الذي كان يأذن لغيرنا أن يخترق اللحظة التي ظللت أحاول أن أمسك بها لدهري كله.

توقفنا عند الطابق نفسه وظلت تمشي بجانبي ودخلنا مكتب الجريدة نفسه، ثم تذكرت وجهها عندما ذهبت لركنها الخاص، لأكثر من سنة كنت أراها كل يوم،

لكنها لسبب ما لم تلفت نظري ولم ألحظ وجودها يوماً.

كانت تخاف أن تعبر لقلبي لأنها مقعدة، وفي قرارة نفسي لا أؤمن أن أي شيء يجعلنا عاجزين عن أن نحب تفاصيل أحد الغير المألوفة إن وجدنا في روحه فردوسنا المخبوء، والذي أطلنا البحث عنه، والذي ألقينا لأجله كثيراً من الوجوه التي عبرتنا على أمل لقياه.

كنت أحب في حقيقة الأمر أنها مقعدة، كنت أحب أن أرعاها وأن أرافقها إلى سيارتها كل يوم، وأن أساعدها وأحب أن أجلب لها قهوة الصباح مع ورقة حب، وأن أحضر معها إحدى

حفلات المدرسة لابن أختها المتوفية، وكانت دوماً تسحرني بإنسانيتها التي تحاول إشعاره أنه لم يفقد روح أمه.

كنت أتخيل وقتها أنني وإياها نشاهد إحدى حفلات ابننا.

كنا نقضي مع هذا الطفل وقت دافئا وكان يغمرنا هو بالسعادة وفرح العائلة، بسمتها كانت قنديلي بهذا الوقت كله.

عشت معها أجمل حب قد يخطر على بال أي امرئ، لن أقول لكِ إنها إحدى قصص الحب الأسطورية، بل انها ابسط مما تظنين، ياقوت وبالرغم من كل كلمات الحب التي ظللت املأها بها لم تقل لي ولا مرة احبك؛ لكني شعرت بحبها عندما كنت اشق قلبي نحو قلبها ليتسع له.

اذكر أنى طلبت منها ان تأت في يوم اجازتها للجريدة، وطلبت من الجميع أن يختبئوا، وفي الممر الذي ينتصف مكاتبنا كتبت في الجوري الذي تحب " هل تكونين أميرتي "؟، كنت أجلس على قدم واحدة وأحمل خاتماً من ياقوت أحمر يأمل أن يتوج ألقه بين الحرير الذي يأخذ مجده على يديها.

ما إن جاءت بكرسيها إلى وجهي المشرئب لنورها صارت روحي ترتعش ولكن وجهها كان مكسوراً، ولا أي بسمة ولو

خفيفة تحط أجنحتها على عنقود ثغرها، رجف صدري ولم تنطق إلا بكلمة واحدة " لا".

وخرج أصدقاؤنا بورد لم يُشأ له أن يطلق على قلبينا لغايته، وعندما خرجوا كان سمعهم يظن الـ" لا" " نعم".

خرجت هي وظللت ألملم شعث خيباتي من وجوه الصحب، وأحاول أن أسند ظهري الذي لم يرأف به الحب كي ألحقها، وأحاول أن أمسك بشعرة بقيت تفصلني عن التشبت بكرامتي بدلا من ياقوت.

لحقتها كانت لا زالت في سيارتها ولم تتحرك وكان وجهها نبع ماء وحزن وخوف.

فتحت الباب وجلست أمامها وظللت أناديها ياقوت، ياقوت، فصرخت في وجهي " اذهب بقلبك عني "

صرخت بصوت أعلى: لكنني أحبكِ، احبكِ وأحيا بلقياكِ فلا تحرمي الروح حياتها.

لم تجبني وغادرت وغادر قلبي معها.

في الصباح التالي:

" أنا مقعدة وكان ذنبي أني اقتربت منك كثيرا وأنا أعرف أنني قطع كثيرة مكسورة ستظل كيفما استدارت نحوك أو بعيداً

عنك تخدشك وتدميك، لا يمكنني أن ارتبط بك وأنا أخاف أن ترمقني يوماً من الايام بنظرة الشفقة كما يفعل غيرك، أثق بك؛ لكني لا أثق بإنسانيتك التي تؤول فطرتها إلى الشفقة على من تظنهم أدنى منها ومع أنني أقول دائماً " إنهما مجرد قدمين معطلتين عن العمل " لكن عندما نخوض عمراً معاً لن تكونا مجرد قدمين، ولن نكون متساويين.

لا أريد أن أكون عبئا تظل تحمل في صدرك الخوف عليه، وهمَّ رعايته أنا عجزت أن أحبك يا ريان، مع أن لقلبك رحابة تستحق العالم بأسره وليس فقط قلبي، كن بخير ".

غبت عن العمل بعدها لمدة أسبوعين رفض مديري استقالتي التي قدمتها؛ لأنه وضع شرطاً لها أن تسرح ياقوت من العمل أيضاً ولم أكن أتحمل فكرة أن أتسبب في إيذائها، فهي ومع عجزها على ان تمنحني نبضاً من قلبها، إلا أنها قطعة من روحي بل كلها سأظل أخاف عليها.

كما أكملت حياتي من دونها، كنت أدخل المكتب من غير أن أناظر بسمتها التي كنت أنتظرها لأضم الفرح لوجداني.

الكل يستطيع أن يناديها وينطق اسمها ويناقشها وحتى الكل يستطيع أن يلقي عليها التحية.

أما أنا فقد بقيت عاجزا عن الاقتراب منها خطوة واحدة قد تودي بكل ما تبقى مني.

مضت الايام وضحكتها تزداد نوراً وإشراقاً وأنا أزداد انعكافاً على ذاتي.

بعد ما يقارب الستة شهور كانت مرتبطة، وكان مقعداً.

كان الحب يتوج نفسه في التوهج المترامي في أعينهما، ذهبت لهما من بين كل الجموع المهنئة والتي تبارك لهما هذا الرباط المقدس الذي جمع قلبيهما وسط ذهول وخوف من قبلهم كون غضبي لم يكن يستطيع أن يحجب نفسه عن ملامحي، لكنني وعندما وصلت لوجهها وصرت قريباً منها لأول مرة منذ ستة أشهر، ابتسمت بسمة امرئ قد رأى ملائكة الموت تحوم فوق صدره.

مبارك قلت، وخرجت أجوب الطرق التي لا أعرفها مشياً على قدمي ما يقارب الأربع ساعات، كنت أحاول أن أحرقها في قلبي وأن أكسر القيود التي ملأت بها عقلي حتى أمسى لا يفكر إلا بها.

وهكذا انتهت ياقوت وانتهيت معها أدرك الآن أن حبها كان أعظم ذنوبي.

- الذنب يا ريان، في بعض الأحيان لا أظن أن أحداً منا يملك اختياره، وإننا نقترفه دون أن ندرك ونضيع في أزقته، مغيبين ويوقظنا الجرح الغائر الذي تحدثه عواقبه، حين نكون وصلنا آخر الطريق ويغلق باب لا تستطيع أيدينا رفعه، لنخطو منه ونخرج ولا نظل عالقين فيه؛ لأننا نعلم أننا في النقطة التي ينتهي فيها هذا الذنب ولكننا لا ندرك ذلك، لا ندرك أنه انتهى ويجب أن ننزع عنا قيده.

اصفح عن قلبك من ذنب هذا الحب، إنها الآن تعيش الحب وتقتات الحياة منه، وأنت عالقٌ في زاوية مظلمة تمنع النور أن يخترق هذا الحزن ويبدد ظلمته، ويحيله سرابا يجعلك تنهض من جديد، انفض عن بسمتك هذا اليأس واسع للحب تلقاه.

أنت قلت إن حبها كان ذنباً والذنوب التي نتوب عنها تمحى تب عنها؛ تُعتق من وجهها.

كنت قد فتحت عينيك حتى آخرهما شاردا بما لست أعلم.

نزعت طرف ثوبك فجأة ونظرت لي مبتسماً وقلت: " خطوة نحو الأمل "

ثم صرخت وأنت تعلقها: "أتمنى أن أتوب"

وضحكنا من غير ان تمتلك أعيننا الهامدة أي سبب للضحك سوى هذه الخطوة نحو النسيان المرجو، النسيان الذي بات أكثر الأشياء التي نهرول بها نحو مساعينا لكي نحيا في هذه الدنيا.

أريد أن أنسى هذا الأسى وهذه الجروح التي تملأ جسدي والثقب العملاق في عقلي الذي يلم أي ألم أصادفه ولو صغيرا، ويزرعه في ذاكرتي السوداء.

أنت يا ريان البقعة الزرقاء التي تملأ ذاكرتي بالبهجة والألوان وتمتد فيها، وعلى الرغم من كل هذا البؤس تساعدني على تجاوز عثرات الجنون التي كنت أمرُّ بها.

هذا الندى الذي ترميه على الجوري الدامي في صوتي فاضحك، وأنا التي نسيت رائحة الضحك وتيتمت من الفرح كما تيتمت من أمي وأبي، أنت جئت لتملأني به دون أن تحكي فقط عندما تطل على ظلالي المظلمة فتصبح ألوان طيف تحط عليه عصافير الشفاء.

أريدك لطريق أنت تكون سراجه ولا شيء سواك، أستطيع ولأول مرة منذ اعتنقت الحزن أن أتنفس بنقاء مطلق إن أمسكت يداي وشددت عليهما، وسرت معي نحو أيامي التي سأملأها بهواك.

هذا الصباح أشعر ان قلبي يرقص شوقاً وحباً كما لم اشعر من قبل، للمرة الأولى يمس زوحي هذا السمو ويغطي جراحي بأقنعة النسيان ويمنحني أسبابًا مقنعة جداً لابتسم، وهذا الصباح يا حبيبي لم أهن على أحزاني ككل صباح، فما اشتدت على ولا أوجعتني بذكراها، لا شيء سوى قدماي تقودانني إلى النافذة منتظرة طلتك.

ها أنت تلوح لي من بعيد وتخبرني أن أبقى مكاني ولا أركض لك كطفلة تنتظر والدها العائد من سفر.

هذه المرة تحمل باقة حمراء أيقظت بها سارة وأبلغتها سلام محمد وحبه.

لم تتمالك سارة نفسها من الفرح المبتور عن الحقيقة وراحت تصرخ وتضحك وراحت تضمني " محمد لا ينساني، محمد يحبني "، ولم أملك سوى ابتسامة تحاول ألا تطفئ النور المسكين الذي أعاد سارة للصحو في هذه الحياة المقيتة.

نظرت لي بابتسامة شغوفة بالهنا.

أنتَ سعيد ومحررٌ مثلي من احزانك، ولو في هذا اليوم فقط.

تركنا سارة تذوب في أشواقها والفرح الـذي راح يغمرهـا، لأن طيفاً أو وهمـاً حـل ضـيفاً مـن سـعادة عـلى صـدرها المثقـل بالخواء.

ظننت أننا ذاهبون إلى الـشجرة التـي تـضمنا دومـاً وتقـدس محاولة نبضينا لأن يقفزا ويلتقيا.

كلما طل ظللك ازيل عـبء شـموس الـشوق عـن صـدري، لكنني وجدت نفسي فجأة خارج أسوار المستشفى.

منذ دخلته لم أتنفس هواء غير هوائه لم أرد أن أخرج منه يوماً إذ إنني دخلته بإرادتي الكاملة وبملئ الرغبة التي كانت تتلبـسني، لأخرج من كونٍ لا يرى ولا يشعر بقيمة القلوب، ولا بما فيها من الحب والوفاء، أو حتى بحزنها ونحيبها ولا يعتبر هذا الخليط مـن الشعور شيئا مقدسا يطهرنا من مثاليتنا ويجعلنا نرتطم بما يجـب أن نعيشه بعيداً عن البساطة، شعرت أن الغمامـة ذاتهـا التـي ألقيتهـا وراء ظهري راحت تسخر مني وتـضحك مـا إن عـبرت البوابـة العملاقة.

صرت أركـض نحـو الـداخل، إلى المكـان الـذي سـمحت لنفسي أن أحيا فيه من غير أن أخاف من أحد أو عـلى أحـد، أو أن

أعير أحداً ما عقلي وقلبي ليظل يجول بهِما ويشغلني بما لا أقوى عليه.

صرت تركض ورائي، وتنادي " ضحى "، ضحى يا ريان تخاف من ضحى خارج جدران هذا المكان.

كنت أحاول أن أركض مسرعة وقلبي يكاد يخرج من مكانه، خوفاً وعجزاً حاولت عبثاً أن أشيح وجهك عنه لكنك تركض خلفي، كنت توشك أن تمسك بي وها أنت تمسك بي شعرت أنك أمل أخاف أن أحياه يمسك بي.

رفعت رأسي صوب عينيك، حيث أرى مدارج النور دوماً تسافر نحوي وحدي، وتخلق في صدري ما لا أستطيع إدراك شيء فيه سوى أنه حلوٌ جداً ودافئٌ جداً.

" لا تخافي أنا معك ".

دموعي زادت انهياراً لتقسم وجهي إلى ألف خارطة من حزن، أسكنها كلها وأظل بلا وطن إلى أن تعيد ما قلت.

" ضحى، والله أنا معك "

خائفةٌ وأنا أظن أنِني أدخل مجهولاً معتماً لم أعتده منذ فترة منتظمة من الزمن، لا صوت أمي يهدهد روحي ولا دفء يديها

يغمر أصابعي الخاوية، كما كانت تفعل كلما كنت أوغل بشيء لم أعتده يوماً.

لولا ابتسامتك عندما لبيت دعوتك نحو الأمان، لظللت ضائعة لكني معك يا حبيبي أجد كل أجزائي التي ظننت أنها تبعثرت في اللامكان الذي لن أصل إليه يوماً.

وأنا معك أصل حيث أحلم دوماً وهذا إعجاز الحب الذي يرفعك حيث تشاء.

ركبت سيارتك التي كان يبدو جلياً منها أنك تعيش برفاهة، نظرت لحالها ونظرت لك.

- المال لا يشتري دوماً سعادة المرء " وابتسامة صفراء اعتلت وجهك الصبح "

- الذين نحبهم هم الذين يعطون القلب بهجته.

- وضحكتهم.

- وحديثهم.

- وأعينهم.

- وكلهم.

نظرت إلى بابتسامة ملؤها الفرح تعبر محياك ثم عاودت النظر إلى الأمام، إلى الطريق الذي لا أعلم أين يأخذنا ونحو ماذا، سوى أنني أتمنى لو يطول ويطول.

منذ أن غادر أبي وماتت أمي وانا أحس بالوحشة تخيم على هذه الطرقات وهذه الأبنية، وأشعر أن الألوان باهتة، كأنها لوحة أخيرة لفنان يريد أن يخنق اللون الذي هو صوته، لكنني منذ أن ذقت أغنيات حبك وعبرت إلى قلبي " ألا أخاف لأنك معي "، ركنت إلى حائط آمان لم أعلم أين تاه عني الوقت هذا كله، وأود لو التصق به وأصبح أنا وهو جسدا واحدا يظل يرافقني ويمشي معي إلى كل الأماكن.

أنت يا ريان، أنت منذ كل هذه السنين الطوال وحدك بكلمة واحدة كنت قادرا على أن تكون أماني.

أنا الآن ألهج في الدعاء وأنا التي صددت يدي عن السماء منذ أن أكل اليأس إيماني وجعلني أتوه عن الله.

أنا الآن أدعوه أن يبصر قلبكَ حبي، رغم أنه أعمي عن كل نبض لا يخفق بقلب ياقوت، ورغم أنه مذهولٌ بها حتى عندما أحدثت شرخاً عظيماً فيه، لكنه يظل يخفق كالمجنون إذا ما حل ذكرها.

أنا أعلم تماماً أن الهيام الذي يُكسر في عمقه لا يجبره شيء ولا يُرمم الشق الغائر فيه وإن رمم فإن أثر الندب يرى ولا يزول.

أريد أن أعطيك قلبي وأن يسكن جوفك وأن أندس داخلك معه ونظل هناك لتحبني بلا كسر أو جرح.

وأنا أفكر في كل هذا، كنت أنت تذوب في صمتك ومكسور فيه وتبحث عن مرفئ يزيل عن كاهليك وحشة هذا الطريق الذي أفلتت فيه ياقوت يدك، بينما يدي معلقة بظلك تنتظر أن تمد يدك نحو الفراغ الذي يهشم الأشواق عليها ثم يُذيبها به.

لا زلت معلقة ولا زلت تجوب حيث لا أعلم، إلى أراضي خيالك التي أظل أتساءل هل أسكن فيها؟

ها نحن نقف أمام مبنى كبير، سألتك أين نحن؟ وقلت لي إننا أمام مبنى الصحيفة التي تعمل بها.

فزعت لأن مظهري لم يكن مناسبا لأرافقك داخل هذا المبنى، شمس أيار باتت تزيد من حدتها وأنا لا زلت ارتدي كنزة زرقاء وطرف ثوبي الذي ضل يعلق بالأمنيات يجعله باليا ورثا.

عندما سألتني أن أنزل رفضت وتحججت بمظهري.

قلت:" لا يهم، أمام هذا الوجه لن يتسنى لأحدٍ أن ينظر لما سواه "

أنت في كل شيء تمنحني شعور المرة الأولى، ها أنذا أشعر أنني جميلة وانتبه لعيني اللوزيتين وشعري المتعرج وبشرتي البيضاء وانا أحدق في مرآة السيارة عندما هممنا لننزل.

لأول مرة يقتلني الفضول لأتحسس وجهي الذي كنت قد نسيت حقيقته، ونسيت كيف أحب نفسي وأحتفي بها، وأنتَ الذي علمتني أن أحبها وأؤمن بها.

كنت دائماً تقف على حواف خوفي وتقمعها وتعبر بي نحو اليقين.

على عجل رتبت شعري لأجدك تفتح الباب لي وتبتسم.

قلت لي ونحن في المصعد إن هناك صديقا لك يريد أن يتعرف إلي لأنك لا تنفك تتحدث عني أمامه وعن لجوئك إلي.

- " أنتِ أول إنسانة ألجأ إليها بعد ياقوت ".

بنبرة غيرة اعترتني قلت لك:" لكني لا أريد ولا أحب أن أكون بديلة عن أحد ".

- لم أقصد هذا.

- عقلك يقصده.

لن أخفي عليك، إن الشعور الذي انتابني هو أنكَ تقترب مني لأنك تجد عندي قبسا من الأمان الذي وجدته، عندها قسم

ظهر الحب فيَّ وأودى بالمسافات التي أسوقها إلى قلبك إلى وديان أكثر وعورة وقسوة، وإنني على مضض فتحت عيني على صحبك وفضولي نحو ياقوت.

كنت تلقي التحيا على أصدقائك، وكنت أنا أبحث عن ياقوت، ولما أطلت الحديث مع أحدهم وكنت قد أطلت بحثي عنها وجدتها في مقعدها الذي تجلس عليه.

لا عجب أنك أغرمت بها.

نظرة عينيها الثابتة وبسمتها التي تثقب أي فراغ مقفر نحو النور وشيء ما مثل السحر يخيم فوق رأسها يمتد إلى قلبي المغرم بك، والتائه أنت عنه في مدى هذا الحلم الذي تبعثه ياقوت.

رفعت عينيها نحوي، كما ظننت، لأرى بعد ذلك أنك ورائي تجوب فيها كما أفعل أنا، ناديتك " ريان" بسرعة عدت إلي، ليتك تظل معي ولي.

ابتسامة تمشي فوق خط الكبرياء الذي يريد أن يقتلع شوقه واللهفة، نحوي رحت تمد يديك وتأخذني كأنني حبيبتك، وتعرفني إلى صحبك، وتنادي بأسماء لا أذكرها وتمر أمام مقلتي وجوه مبتسمة عاجزة أن تأكل الطريق الطويل القصير إلى عقلي؛ إذ إنها لا تحمل وجهك، وإذ إني تائهة أسأل نفسي أتحبني؟

هل اقتربت من قلبك مسافة عشق؟ أم أنك تعلم الناس بوجه روايتك القادمة وتخبرهم ما هو شكل قصتك؟

أريد أن أكون قصة حياتك، الحب الذي نزع من صدرك ما أفسدته الخيبات، السكينة التي تحل في ذاتك وتشفيك من كل ما يضنيك، أريد أن أكون النبض الأعظم الذي يجب كل ما قبله.

وقفت عندما وصلت لشاب عرفت فيها بعد أن اسمه سامر.

الشيء الذي أيقظني لوجهه عفويتك التي نطقت بها اسمي " ضحاي" لم يحدث أن ناداني أحدٌ به سواك أنت وأمي.

أخاف أنك تغدق على قلبي ما يشبه رائحة أمي كثيراً، أخاف أن أفقدك كما فقدتها، أن أضيع مجدداً كما ضعت قبل سنين.

قلبي هش، وصوتي هشٌ أكثر، لن تسمع صراخه إن غادرت ولن يسمع سواي فنائي، وستسقط الضربة الأخيرة على صدري وتودي بي إلى الوداع حيث لم أعرف مكاناً سواه.

أرجوكَ يا ريان ابق هنا، في مداري في مهجتي في عيني كما في خلواتي التي لا تغيب عنها أرجوك.

صديقك سامر رحب بي " أخيراً، رأينا ضحى، أهلاً، أهلاً "

نظرت إليك وكانت نظرتك التي بادلتني إياها تشرح صدري وتزيح ثقل السنين كلها عن ظهري، لا شيء يشبه عينيك

عندما تمتلئان بالبهجة وتفرجان أساريرهما بالفرح. قصيدة خلق لم يتنزل قبل في حسنها أحد.

أخبرني سامر كيف أنني سرقتك منه وأنك ما عدت تفعل شيئا سوى عذوك نحوي،

ولأنني لم أشفَ بعدُ من خوفي من التيه في كسر الوهم الذي لا أعرف إن كنت أقدر بجرحي أن أرفع رأسي نحو فيء لا يتصل به.

- لم أسرقه أنا يا سامر بل شغفه ليكتب، أنا له مجرد قصة ولست شخصا يذكر بقدر ما تفعل تجربتي التي يكتبها.

نظر لك سامر نظرة تعجب وكأن شيئا من الخيبة يكسو وجهك الذي أهوى.

كان سامر يَهم أن يقول شيئاً لكني كنت أسرع منه، غادرتكما لا مودعة ولا متحدثة لم أنظر ورائي، ولم أسمع سوى صوتك ينادي " ضحى " التي لم تعرف سواك ضحى منذ أن يتمت.

وأنت لست لي، أنت لياقوت التي تنظر لك وأنتَ تلحقني متعجبة بلا اكتراث، حرامٌ أن يلقى قلبٌ كقلبك على قارعة الخيبات هكذا معلق بين الحب والحياة، تائهٌ لا يأنسه ظل حب لا يحمل اسمها ولا يشفي صدره العليل ملجأ لم يكن بابه عينيها.

ظللت تناديني وأنا الآن أعبر الشوارع التي لا أعرف سوى أنها تيه، ووطني يلحقني يحاول أن يثنيني عن هروبي نحو اغتراب لا أريد أن أخرج من قبوه، فهو القدر الذي استنجدت به منك.

لا تناديني يا ريان ولا تسألني أن أعود إلى سراب سأعبره بكل خفة نحو نفس النقطة التي عدت لها.

ألححت في النداء حتى صرت أمامي، " ضحاي، أرجوكِ توقفي "

رفعت عيني المبتلتين لهفة إليك، نزلت على قدميك بسحر شغف قلبي أكثر، رجوتك في صدري أن تكف عن هذا البهاء يا ريان كي لا أحبك أكثر.

- " ما بك، ما الذي ازعجك؟ "

- أخافك.

- أنا؟

- أجل.

- لن اتركك.

- ستفعل يوماً ما، منغمساً في حياتك.

- لن أتركك.

- لا أريد أملاً كاذباً، لا أريد وهماً يكفيني وهمي الجنوني الذي عشت عمراً فيه، اتركني وشأني، اتركني أرجوك الآن اتركني قبل أن أغرق أكثر.

- إذا استطعت أن أسترد قلبي من عينيك سأتركك يا ضحى.

ممسكاً يدي وتجرني وراءك، الأرصفة الممتلئة التي كنت تنأى فيها الناس عني وتفسح لجسدي الذي أمسى يمامة أن يعبر معك نحو ما لا أدري.

وضعتني في السيارة وسرنا، الصمت وحده هو الذي كان يخيم فوق قلبينا، لم أعلم حينها أأفرح أم أبكي، ذاك السكون الذي يغزو ملامحك، والذي يسيطر على ممشانا انتابني فزع من أن أخسرك فيه لا أن أخسرني.

تنفست الصعداء عندما وصلنا المشفى، عدت حيث سأظل.

دعني أعترف لك أن هذا الهواء وهذه الزحمة وهذا العيش الذي تعج به طرقاتنا يشعرك بأن الدنيا جميلة، لكني أهاب تلونها وانقلابها على صفيحة قلبي المتصدعة.

لو أنك تظل معي والله ما هبت، لو أنك تأخذ بيدي لصرت سكينة لا تقترف ذنب الخوف يوماً.

لم تنزل ولم تتحدث ولم تودعني، وجهك ثابت حيث لا يطل ظلي عليه، نزلت وصفعت الباب بكل القوة الهشة التي تمتلكها يدي الراجفة.

لم تعبأ أوليتني ظهرك وذهبت مسرعاً، ركضت وراء الجبن الذي يتعتق في داخلي مللتني، قلبك معي أنت قلت، لكن هذا لا يكفيني لا يجعل لي قدمين جديدتين من يقين لأعاود المسير معك في العمر الذي أهفو أن يتوج باسمك يا حبيبي.

لم أنم، لم يستطع النوم أن يرخي ستائره في عينيَّ، الليل كان أطول من احتمالي وأقسى من هشاشة جسدي.

إني أذوب فرحاً بين احتضاني لقلبك في عينيَّ كما قلت، وبين عدم قدرتي على أن أخطو نحوك، وأترك كل الآلام التي تزيد المسافات بيني وبينك.

أتمنى لو أقفز عن حزني العميق هذا وأتجاوز كل جراحي إليك، أريد أن أشفى في ظلك، لا ظل ضياعي.

سارة نامت تحتضن الورد الذي أهديتها إياه، ليت الجنون مسني، لأحتضن رائحة منك وأنا سعيدة هكذا ولو لمرة.

لم أنم منذ مدة طويلة، منذ أن كان عمري ثماني سنوات، حتى المهدئات التي كانت ترغمني على النوم، كانت كالكذب الحلو، لا

يمت للحقيقة بصلة ويأخذنا إلى الوهم، كنت أتوهم النوم وتلحقني به أشباح أوجاعي.

أرجوك تعال لأنام، الدنيا في الخارج مليئة بالاختصارات التي لا أستطيع إليها سبيلاً. العشاق مغمورون بالوسائل التي تجعلُ مجيء المحبوب إليهم أمراً هيناً لكنك وكما تعرف، أنا لا أنتمي لهذا العالم التي تظل تغادر إليه، أنا أنتمي للزمن الذي يجب أن أنتظر فيه الصباح الذي قد يحمل شذاك إليَّ.

إنه الفجر، إنه الله، ينادي كل الاكوان النائمة نحو نوره.

أترك نافذتي الرملية التي التصق فيها وأنا أضع مئات التكهنات عن الوقت، وأسأل الدقائق أن تعبر.

جلست، لا أذكر كيف أتوضأ أو أصلي، كانت أمي قد علمتني الصلاة لكنني ومنذ أن أفلتت يدي لم ألتفت لسجادتي الصغيرة تلك، ولم أكلف نفسي حتى عناء ذلك.

كنت فقط إذا ما ضاقت بي الدنيا أنادي الله وأحكي معه كطفلة تفضي بكل ما فيها لأمها وتبكي.

سألتني صديقة يوماً إن كنت أخجل من الله عندما لا أعبده ولا أنظر إليه إلا إذا ما ضاقت علي الأرض بما رحبت.

نظرت إلى السماء وقلت في صدري " ايغضبك إلهي؟ أنا أعلم أنني لا أقوم بواجبي نحوك على أتم وجه ولا أشكرك كما يجب على قوت يومي الذي تهبني إياه من الصبر ومن قدرة تكفيني لأحمل نفسي وأدفعها عبر الأبواب الموصدة في وجه السكون، الذي يود لو يخمد احتراقي.

أنا بعيدة، بعيدة جداً لكنك قريب أقرب إلى من وريدي، كيف لا يلفت كل هذا النور الذي تملأني بهِ أُنساً في أوردتي بصيرتي نحو الصحو؟

لكني أرجوك أن تسمعني رغم أنني أعلم أنك تفعل، وأنك لا تشيح رحماتك عن هذا الصوت الهزيل.

أنا ضعيفة وواهنةُ في غمامة بؤسي، ضريرة عن كل شيء وينقذني دوماً صوتي الذي يضيق بحنجرتي فيخرج نحو سمائك رغم سذاجته، لكنه كلما ناداك عاد إيمانه إليه"، لم تعبئ يومها صديقتي بالنظر الطويل إلى السماء وقامت.

تمنيت لو أنني أعلم كيف أصلي، دعوت الله أن يبعثك لي مع الصباح فرحة هشة أتقاسمها مع عصافير الأمل.

غفوت.

الايمان كان كفيلاً أن يجعلني أغفو.

مرت خمسة أيام، لم تأت.

بكيت فيهم عن عمري كله كنت كصوفي تاه عقله من تخمة الدوار حول النور الذي لا يمسكه.

اليوم السادس.

لم أكن أحلم بقدومك.

لكنك كنت تجلس تحت الشجرة، مسهبا ولم تطلبني، كنت أكبت رغبتي في الذهاب إليك، وكنت في الوقت ذاته أود بكل يتم الطفلة التي بصدري أن أركض إليك، وأبكي ملء الغربة التي تورق في جوفي وتعتصرني، ظللت واقفة من نافذتي أرقبك، وجهك عكر بثقل الأرض كلها، تحدق في الفراغ الذي ينبش في أعماقنا الأشواق المدفونة ويحمل لهاث أرواحنا من تعبه نحو الشمس التي لا تشرق على هذا الحب.

الخيبة التي تجرعنا علقمها تقحمنا في خطوط التيه وتذيبنا فيها ثم لا نجد أنفسنا، نفقدها حيث فقدنا كل شيء وحيث تركنا المر كله يعبث بالأمل.

أقول لك كما أقول لنفسي أرجوك تعال لنكسر خوفنا، لنمزقه ومن ثم ننفثه في اللامكان ونذهب متشبثين بالحياة وبحبنا.

أرجوك كنت أرفض الحياة إلى أن عرفتك، خوفي يأسرني لكني أعلم أن حبك أكبر من خوفي أكبر من أيام الضيق والكدر، وجدتك وبكل اليقين الذي تاه عني لا أريد أن أعيش وحدي بعد الآن ولا أن أذوق طعم الدنيا بلا قلبك.

أريد أن ازجُ الغياب في صدر النسيان وأركض بعيداً وألقي وجهك في آخر دروب الوجع.

تعال لا تغب ولا تذهب كما يذهب حلم كالغيم بين الكفين الهرمتين.

أنت تقف تحدق بالحنين الذي راح يقفز على قدميه عندما لمحت صورتي تمثل منتظرة حركة منك توقد في جنباتها طمأنينة.

لكنك ذهبت، لماذا أتيت إذاً؟ ألقيت هشاشتي كلها وراء ظهرك الذي أوليتني إياه وغادرت.

عدت إلى سريري، طالعت سارة أنها تمر في نوبة جديدة، لم أملك طاقة لأن أسندها.

أنا عاجزة عن كل شيء وسأصبح مثلها، مجنونة حقيقة.

أهلوس وأدخل بنوباتٍ تخلصني من علقم الخيبة تهدأ فجأة، وهي لم تهدأ منذ أن عرفتها بهذه السرعة من قبل.

جلست فجأة أمامي راحت تغني أغنية لا أعرفها، ثم نـادت اسمي.

كنت أظنها لا تعرفه فهي لم تنطقه من قبل.

" محمد سامي ما زال على قيد الحياة محمد مازال حيا، هـلا أتيت لي بهِ؟ "

ذكرت تفاصيل كثيرة منها بيته وعنوانه، وأعـادت لي ملامحـه ورسمه وهي تمتلك بين عينيها سعادة ستغدر مـن الحقيقـة التـي تنفي كل هذه الهلوسات، ثم قالت: سئمت أن أظل مجنونة لأننـي لا أملكه بين يدي، رجوتكِ أخبريه أنني هنا إن كان تاه عني، يبدو أنه لا يجدني ولا يعرف مكاني خذي عني عبء هذا التيه المجنـون واجلبيه لي.

ظننت في عقلي أن هذا الوهم يتخللها لأن ريان كان يحضر لها وردة كلما أتاني ويقول لها إنها من محمد.

أخبرتها حقيقة ما كنت تفعل يا ريان، رغم خوفي أن يـضرب الجنون صخباً جديد في صدرها، ببرود مطلق جاوبتني أنها تعرف وكررت: " أحضريه لي "

ثم نامت، وظللت أصافح عتم الصدمة.

ها هو اليوم يهرول لكل الذين يقبعون خارج قوقعتي، وأنا يمر عليَّ كأنه الدهر.

متى سيطلع نهار غيره؟

جاء الليل، ظللت أواسي عتمته ووحدته بوحدتي، نجبر تلك الشروخ العظيمة بالصمت والهدوء.

نمت ساعة واحدة، وصحوت على نداء سارة.

تهمس لي: " لا تنسي البحث عن محمد اليوم "، وضحكة مجنونة تترسم على المحيا الآمل.

لا أعلم ماذا أفعل.

كيف أذهب وكيف أخرج، مر يومان، سارة تغمرني بذات السؤال " متى ستذهبين؟"، ومر على غيابك تسعة أيام، أعدها وآكل نفسي بالغضب واليأس والخيبة.

هذا الصباح ككثير من الصباحات التي كنت أجهل نورك فيها، كانت هذه الجدران تظل تطبق على أضلعي دون أن أفزع من الموت.

الآن أخاف أن يقتلني هذا الوجع أريد أن أحيا؛ منذ أن خسرت أهلي منذ أن شردتُ وحيدة بلا سند حقيقي أعود إليه عندما تكسر الدنيا شغفي، أريد أن أحيا لأنني أعرف أنك في بقعة

ما تمارس مهنة الحياة وتنبض وهجاً لي، وان قلبك بدأ ينزحُ لوجودي وعالمي متطلعاً نحو الحب الذي لا يكون فيه وحده، وأنا أجعلك تهرب من خوفي وعجزي وقلة حيلتي وإيماني.

طبق الفطور الذي أمامي الآن أكذب إن قلت إنني أعرف ما هو، أدور بالملعقة فيه، أبعثر شتاته ولا أتذوقه.

تجلب لي الممرضة صندوقا أزرق، رائحتك تفوح منه، نبضك وشغفك.

حبيبي الأنيق في حبه، هذهِ طريقتك؛ الصناديق التي تحمل الغيم والتي تمطر ما إن أفتحها على قلبي عبيراً.

فتحته، علبةٌ فيها حليب مع بسكويت برقائق الشوكلاتة، وورقة حمراء كتبت فيها:

" كنت في الغياب أعد ذاتي لأزيل عن قلبك مخاوفه وفزعه، لأنني أحتاجه أكثر من أي شيء ولا أعلم كيف سرقني وجعلني أسيرا له، هذه الإنسانية وهذا الحزن الندي هذا القلب الكبير لا يجب أن يمتلئ إلا بالحب والياسمين، تمنيت لو أقولها لكِ وأنا أناظر عينيكِ لكني أعجزُ قلبي دوماً فيكِ وأعلم أن عيني كانتا مفضوجتين بهذا النبض الذي بدأ يملأ خلاياي، أنا قد بدأت

الدرب في حبكِ بدأتهُ وأنا مليء بأمل أكبر من الخيبة التي كانت تعتمل في صدري، دعي خوفكِ وتعالي.

قلبي لكِ وقلبي هذا الذي ألقى أوجاعه وجاءكِ لا خوف فيه، إذا ظللت له وفيه "

الفرح كان يسري في أوردتي، أظنني أصبحت طيفا أزرق يحلق نحو الخارج يبحث عن قلبك ليقف على أغصانه.

ها أنا أجدك تقف تحت شجرتنا، إشراقة الصيف تغزو ملامحك لتغدو أكثر دفئاً وأماناً. رحت أزرع بسماتي في الخطو نحوك زهراً ترويه وتحتضنه.

على الكرسي الخشبي كما المعتاد جلسنا، ها أنا أجلس عليه وأعلم أنني في قلبك، لا أستطيع الثبات، أود لو أركض وأصرخ فرحاً وأجن وأخبر الكون كله أنني أتجرع الغرام دواء بديلاً للمر.

ظللنا في صمت كان عن ألف كلمة، رأيت الخوف والخيبة يرحلان، ووحده الحب كان ينشر غيمه على ضفاف قلوبنا، والفردوس أسدل ستائره على النبض الذي سيعيش فيه إلى الأبد.

قطعت الصمت عندما وجدت سارة تحدق بنا من نافذة غرفتنا، أشعر أن سارة في صحو غريب هذه الأيام، إنها تتذكر

كيف تكون سارة التي لم ألحظ أثرها قبل اليوم، والتي عاشت هي معها العمر الذي بترها إلى ما هي عليه الآن.

تبتسم لي ابتسامة خفيفة، أذكر طلبها وأجدك سبيلي الوحيد إليه.

- سارة باحت لي لأول مرة عن سكن محمد واسمه الكامل، وطلبت مني أن أذهب إليه وأدله عليها، إذ تظن أنه أضاعها، أنا لا أعلم إن كانت تتوهم وتمر بفترة من صحو الماضي، أم إنه فعلاً لم يمت.

أريدك أن تساعدني وأن نذهب إليه، إن عثرنا عليه جئنا به إليها وإن لم نفعل نخبرها أنه قد توفي حقاً.

- وإن لم يكن لا هذا ولا ذاك؟

- ماذا يمكن أن يكون إذاً؟

- قد يكون غادرها أو غادرته، إنها تحبه بجنون وأنا أعني ذلك بالمعنى الحرفي للكلمة.

- لا أعلم، ماذا قلت هل تأخذني إلى هناك لنبحث عنه؟

سارة تظل تسألني متى سأذهب وتلح عليَّ، لا أريد أن أخيب أملها لعله فعلاً ما زال موجودا ولا يعرف مكانها.

- بالتأكيد سأفعل.

في الصباح التالي كنت أرى الدنيا بلـون آخـر وطعـم آخـر، كأن معجزة حلت في عيني وبدلت كل ما كان وجعلتنـي أسـيرةً لما أراه وأحسه.

البسمة عاجزة عن أن تفارق ثغري، قلبي ينبض بحدةٍ كأنك أمامه، رئتاي تمتلأن بالهواء حتـى كلهـما وهـذا شـعور كنـت قـد نسيته، الهواء نفسه الذي يحيط بي غارقٌ بالمسرات التي تفيض مني إلى ما حولي.

أخبرك أنني الآن بصحة أفضل آلاف المرات مـن الأصـحاء والعقلاء الذين يهتمون بنا هنا.

أنا أعيش وأعرف ما طعم السعادة بعد أن كبلتني المرارة عمر ما ظننته يمضي، حتى جئت أنت مرة تلو الأخـرى وصرت كـلي، ولا شيء يتصل بك إلا ويبعث الحياة.

ينادون اسمي لأعلم أنك حضرت وتريدني.

عيناك سماء وها أنا بوضوح أرى قلبـي يطـوف بهـا، شـاكراً على الأوطان التي تغني له أجمل ما غُني في الحب قبلاً.

ذهبنا نجوب الطرقات نحو العنوان الذي أعطتنا إياه سـارة، غير عابثين بأن هـذا العنـوان قـد يكـون مجـرد هلوسـة، مـؤمنين

بقداسة الحب في قلب العاشق، وكيف أنه قادرٌ على أن يعيد تركيب روحك ويأخذ بيدها من القاع الى الشمس.

وصلنا العنوان، طرقنا الباب.

لم يجب أحد، أردت أن أتابع الطرق لكنك منعتني، وقلت نأتي لاحقاً كان قلبي لا يريد أن يخيب مسعاه.

تذكرت أنك يوماً قلت لي كلما صعب عليكِ امراً اقرئي سورة الضحى.

رحت أتمتم بها وأطلب من الله اليقين بعد أن وليت ظهري لذاك الباب المغلق، ولا زلت أتلو غارقةً بالإيمان الذي شعرت به يسري قشعريرة في جسدي.

فتح أحدهم، التفتُّ بسرعة مخيفة وقطعت الدرجتين اللتين نزلتهما كغيمة.

امرأة كبيرة في العمر، سألتها عن محمد، أجابت بردة فعل سريعة والانزعاج يكسو ملامحها: من يريده، احترت بماذا أجيب قلت: " أصدقاء كقدامى ".

سألتها أين نجده لأن هذا آخر عنوان نعرفه، دلتنا على عنوانه الجديد، أظنها أمه أغلقت الباب دون أن تترك لنا فرصة شكرها.

إذا لم يمت، سارة كانت تعي ذلك واستيقظت به الآن فقط، الأمل عاد لصدري مرة أخرى، ضاحكة أشعر بنفسي أحلق، نظرت إلى السماء، الله يرى فرحي وأنت أيضاً تنظر لي مبتسماً.

- تحدثين الله؟

- كيف عرفت؟

- أفعل هذا دوماً بلا وعي، حتى ولو كنت بين الناس.

- -ضحكت-وأنا أيضاً.

كان الفرح يغرقنا، ذهبنا حيث العنوان فتحت لنا هذه المرة الباب طفلة صغيرة جميلة، سألناها عن محمد، دخلت تناديه بِ " أبي"، نظرت لك، وبدا لي أن أطياف الأمل تلوح بعيدة عن مدانا. أطل علينا، سأل بتهكم -عرفته كنت قد رسمته قبلاً -

- ماذا تريدون؟

- سارة هل تعرفها؟

لم يجب، ظل صامتاً، ثم بعد برهة نظرنا إلى بعضنا والصمت صار يحاول أن يكسر نفسه ويخرج من عباءته ويفر منا، تاركاً للإجابة المنتظرة الطريق، رأفةً بالصبر والأسئلة المئة التي تدوي في صدورنا.

- أجل كانت خطيبتي لكننا انفصلنا منذ وقت طويل.

وجهي كان يصرخ بتمتمات الألم التي تموج في قلب يتفطر على حال سارة.

- لماذا تسألونني أنا عن سارة؟

- هل تعرف أنها منذ سبع سنين تهذي بك في مستشفى للأمراض النفسية ظناً منها أنك قد مت، منذ أسبوع استيقظت لتخبرني أن أبحث عنك.

- أخبرتها ألف مرة أن تتجاوز ما جمعنا يوماً، لكنها أبت وذهبت بنفسها إلى طريق المرض، ليس لي ذنب في هذا، عليها أن تعرف أن الشفقة لا تستطيع أن تجبرني أن أعيش معها، أنا فقط استيقظت يوماً لأدرك أنني لا أحبها حقاً، رغم كل العشق الذي ظننته حقيقة وجمع بين قلبينا.

أنا الآن مغرم بالمرأة التي هي أم أولادي، ليس كل ما يطلبه المرء يلقاه، هي لم ترد إلا أن تحيا في ظلالي التي حاولت جاهداً أن أرميها خارجها.

أنا أدرك أن الحب يرغمكِ على الغرق وأنتِ تعرفين أن كل قطرة منه تذوب في خلاياكِ، وستذهب بكِ من كثافتها نحو القاع الذي لا فرصة فيه لأخذ شهيق أو زفير، وكان على سارة أن تتعلم كيف تنهض بنفسها، وتساعد نفسها على أن تتجاوز هذا الحب،

من لا يساعد نفسه يعجز كل شيء حوله عـن أن يـساعده، والآن اسمحي لي أن أستأذنك وأذهب لأشغالي.

حمل ابنته بين يديه وأغلق الباب.

كنت أتوضأ بدموعي، جلست على أحد الأدراج التـي تقبـع امام بيته واخذت أنزف صرخاتي.

-كيف يمكن لأحدٍ أن يكون غارقاً بحـب شـخص مـا ويـسرق قلبه منه، لا يمكن أن يكون هذا حبـاً في الأسـاس، الحب أن أجدك دائم النبض لي، تذكرني بكل رمشه عين، وتـضع قلبـك بين كفي وتولي الكون بكل خلائقه ظهرك، وتظـل تحـدق بي، وإن تهت عنـك يومـاً تتبـع قلبـك حيـث سـيكون في عمقـي وتجدني، لا أعرف كيف استطاع أن ينطق أنه انتهى من حبهـا، هو لم يبدأه كي ينتهي منه، هو لم يعرف كيف يعاش الحـب بـل خيل له أنه قد عاشه معها، لا يمكن أن نفرغ بكل بـساطة مـن امتلأنا بالذين نحبهم.

-لربما هو الآن يتوهم حب زوجته، لا أظن أن الشخص الـذي يـستطيع أن ينهـي حبـاً عـاش أدق تفاصـيله مـن جنـون وشغف، قادر على أن ينفض يديه منه هكذا مرة واحـدة ولا يعلق شيء بقلبه.

- لكنه ظل معها سبع سنين، إنه يحبها.
- قد يكون وهم الحب عقاباً لجرح أوقده في نبض سارة.
- لا أعلم، ربما أدركه معها.
- ربما، عليكِ أن تفكري ماذا ستقولين لسارة عندما نعود.

عدت لسارة التي تنتظر بشغف العشق رائحة الحبيب، جلست أمامها عيناها كانتا ألف سؤال اختصرته بحزم قلب يريد أن ينهي هذا الحزن المعتق في وجهها، أخبرتها أنهما انفصلا قبل أن تأتي هي إلى هنا وإنه الآن يكمل حياته وله عائلته الصغيرة.

دموعي كانت تهطل عنوة، ابتسمت وقالت: " إذا فعلاً قد مات، محمد الذي يحبني وأحبه قد مات".

عادت سارة كما كانت لكن أقل بكاءً ونوباتها كانت أخف حدة.

الايام التي تلت كل هذا بالنسبة لي كانت تجعلني امرأة أخرى، كنت اتبدل واتغير، أخلع عني ركام اليأس وأتوشح بابتسامتك، كنت أبدل عيوني بقلبك لأرى عوالم جديدة أقر فيها بوجود الأمل والفرح، وأعود من اغترابي إلى حضن الوطن وأتشبث به كلما أشرقت كلماتك شمساً على سنابله.

لا أريد أن ينطفئ شيء وأريد أن أركض في هذا الظل وألملم

الوجع والجوع، وأنثر بدل له الأغنيات البيضاء خبز الكفاف.

أنا لا أعلم أين سأصل في هذا المكان الذي لا أريد الرحيل عنه يوماً، ولا أعرف إلى أين يؤدي بي الطريق أيطول أم يقصر؟ أيبتلعني أم يظل يفرش لي إشارات الماضي؟ أعرف أنني فيه أمسك يدك راية لسلامي والاطمئنان، هذا الشحوب الذي خلعته عندما توضأت كفاي بنور أقمارك التي تسللت إليها.

رحم الحياة كان يضعني في وجه الضياء منذ أن عرفتك، وكلما كنا نخرج بمثاليتنا نحمل الورد ونوزعه على المارة الذين لا نعرف من هم، طفلٌ قد يدفعه استغرابه إلى أن يشيح بوجهه عنا، وآخر يهديها إلى أمه التي تحمل كفه متشبةً به، ويبتسم لنا كما أظن أن الملائكة قد تبتسم، وعاشقان يلتمع في عينيهما شغف يؤذن بميلاد قلبين لم يعرف الزمان مثلهما قبلاً.

لامرأة تحفظ التجاعيد أواخر الزمان على وجهها الحسن، كقبلة موت كاذبة والقلب الفتي في صدرها آخذ الوردة من أصابعنا، كقنديل سحره راح يملأ النور في حجرات أكلها ظلام سنين عجاف.

وردٌ يلقى في وجهنا وكأنه ابتذال ساذج، وآخر يعرج إلى سماوات الروح، وفي كل مرة كنت تهديني الوردة الأخيرة عندما يكون التعب قد تدلى من صورنا، وراح يذبل الطريق لنقف.

تقول: "النهاية دوماً ستفضي إليكِ، أقول هذا يقيناً لو صعدت الكون كله ولمست السماء أعود اليكِ، انتظريني دوماً عند نهاية كل درب، مهما طال سأكون هناك، مغسولاً بالحنين وكل الشقوق التي جلدها لي التعب، تفيض بك وتومئ بانتصاري في الحب والصبر".

لم أفهم ما عنيته إلا الآن، كنت مأخوذة بخفة الخطوات التي تتخذها الأفراح إلى صدري، وكيف أنني أتوهج كنجم خلق في المجرة ويشهدُ اتقاده الأول، ولا شيء يقدر على أن يخمد اشتعاله.

هنا في ساحة هذا المسجد الذي كنا ننثر آخر ما تبقى من خبز الحب الذي نأكله مع الابتسامات عبثاً، كونها تظل وليدة لحظات مرتبكة تجمعنا، وتقرع برجفةٍ نواقيس هذا الحب.

هنا أيضاً صليت لله أولى صلواتي، عندما أهديتني وشاحي الأزرق وعلمتني كيف أتوضأ وأصلي، بقلب يتثاءب في صحوته الأولى أشباح العتم، ويفتح ضفافه على حدود الإشراق.

معك عرفت الله في الصلاة، في تلبية النداء، في الحب، في الغياب، في الوحدة التي تركتني أقاسي فتكها بروحي غير عابئ أو عائد.

بعد عامٍ كامل من كل هذا الجنون الذي راح يومض بخصلات الأسى، وينسلها من صوتي ويمنحني حناجر الذهب، كي أتغنى

بكل ما هو سراج لهذا العشق الـذي اقتـسمنا العـيش المـورق بـه في أوردتنا.

كان أجمل عـام عـشته، عـام ذقـت بـهِ كـل أصـناف الفـرح والشوق والهوى، عام بألف عام، بألف عمر وألف قصيدة.

أما الآن فأنا أعد العـام الخـامس بعـده، عامـك الخـامس في النبضات الأخيرة.

عبرت عليَّ هذه الأعوام موتاً أمضغ فيه فنائي، عقاباً على كل ذاك الموج العارم من الحب الذي عشته معك.

أنا الآن أسكت صهيل الفضاء في كفي اللتين تريدان أن تلطما هذا البعد، وتنفياه إلى أقصى مدى أعجز عن إدراكه.

في هذه الأعوام الخمسة التي غبت فيها بحثت عنـك في كـل زقاق كان يمكن لجسدي الثقيل بالفقد أن يتسع به.

أصدقائك الذين تمنعوا عن الإجابة عن أسـئلتي التـي تتـوق لمعرفة دروبك، عن الجبـل الـذي ظللـت أجلـس في قلبـه حيـث صرخت قبل أن يأخذك فيضان النهايات، وتـنفض الطريـق كلـه بخطوة عملاقة جداً، حيث النهاية التي وعدتني أن تقـف عنـدها منتظراً إياي.

صرخت أحبكِ بجنون عاشق حقيقي يعلم أنه سيترك هذه الياسمينة التي تتلخص مواسم تفتحها في حضوره المطمئن.

خمس سنوات كنت قد تركت فيها المشفى، وأعمل منذ حينها معلمة للفن في الميتم الذي تذكره جيداً، ذاك الذي دللتني أنتَ عليه، وكنا نذهب إليه كل جمعة، تحمل كثيراً من الألعاب، والدمى الممتلئة بالقطن والحب، وكنت أنا أرسم على وجوه الأطفال وأرسم صورهم.

لا أنسى تلك اللحظات، أجمل ما غمرني، مواقيت محنطة في ذاكرتي إلى الأبد.

خمسة أعوام أكابر فيها انهياري على أريكة الاستسلام، وأقف على قدمين من غيم، وأمشي بهما متحدية وعورة الحزن، وأصد بيدي كل الأبواب التي حاول الحب أن يتسلل إليها من ثقوب انتظارك.

لا أريد أن ينبض هذا القلب المتهالك على شرفات عدمك لغيرك، أنت وإن كنت لا تريد أن تعود، فهذا يعني أن النهاية التي أرقبك عند أطرافها ممتدة إلى الأبد.

أنا الآن أمسك كتابك الذي صدر للتو ويحتل رفوفا في المكتبات، هرولت كمجنونة عندما علمت أنه قد صدر.

رائحتك تجوب المكان، ضوء منك راح ينبعث في مداي ويتفتت في عروقي التي تركض بلا وعي في الطرقات إلى أقرب مكتبة.

لا يحمل الكتاب عنواناً، كان قد نصحني البائع ألا أشتريه، وقال: "كاتب عبقري وكتاب سيء للغاية ".

لم أستمع له ولم أكترث، إنه حبيبي أحمله بين كفي الآن.

حملت الكتاب، إحدى اللوحات التي أهديتك إياها هي الغلاف، شجرة الأمنيات والكرسي الخشبي، والصندوق الأزرق.

الكتاب كان صفحة واحدة.

" الفوضى التي كانت تنزلق في أيدي المستحيل التي تطوق جيدي المشرئبة نحو السماء في عبث دامٍ، صارت سراباً منذ أن جاء صوتك بالهواء إلى شعاب رئتي الضامرتين قبلكِ، دمي كان فيه لهاث الخائفين الذين يقتلهم ظمأ الحب وهم على ضفاف نهره، ولا يغترفون ما يسكت الفجوات الصارخة بالخيبة، ويحملون هذا الحب طهوراً وشفاء.

يدكِ، يد آذار الذي عرفتكِ بهِ جاءت تسقي القلب المتشقق وتجبر الفراغات بعطرها، تكنس العبوس عن أغنياتي وقصائدي

وتزرع جدائل الضحى في أضرحة النسيان كي لا ترى، قلبي هـذا ظل رطباً منذ أن سقته الضحكة الهطول.

أحبكِ، هذا العمر ابتدأ هنا في حقيقة الكون التي قرأتها في عينيك، يوم ذاب سورهما في غمرة هذا الحب، هذهِ الحقيقة التي جعلت الكون مستساغاً وممكناً حد التصديق.

أحبكِ، فمنذ أن سلم قلبي مفاتيح أبوابه المعطوبة إلى المستحيل الذي تحقق في صوركِ، ورحت به أهتدي طريقي وأتقيئ ضياعي في سراديب الخفاء، هذا الشقاء راح يقشر نفسه عن جلدي منذ أن نطق قلبكِ هذا الحب.

أنتِ تعلمين الآن أن هذا القرب تراخى حتى صار بعداً، نقحم مره إلى حكاياتنا التي نعجز أن نتركها تسير إلى معدة الهباء.

كل الغياب الذي اقترفته وسأظل مرغماً عليه رغم كل معاطف الشجاعة التي ارتديتها في دربي للعودة عبثاً، لم يغير في هذا الحب شيئاً، عدا أن لهيبه يزداد ويجعل العيش البعيد عنه مضنياً.

قلبي لا زال يتراخى ويجن كلما لمح طيفك، أنا أراكِ كل يوم، أراكِ الآن وأنتِ تحملين الكتاب وتقرئين، أرى الشتاء في أعين الملائكةِ أنا على أطراف النهاية دائماً سأظل أطل، ولا

أحضر حتى تجمعنا النهاية الأخيرة التي سنظل بعدها أبداً لا يطفئ عدوه نحو البقاء شيئاً.

الضحى تبعثه الشمس فهي أصل تكونه وانبثاقه، ونجم صغير يا ضحى يحرقه التصاقٌ بكل هذا النور وإن ذاب غراماً ".

النواح الأخير يتصبب مطراً من بين أجفاني، هذه الندوب تغلق أبوابها ونوافذها المبتلة، وتحط حمائم السلام على أغصان الزيتون في صدري، وأشعر بالدوار يتوقف عند محطته الأخيرة.

خفيف جسدي راح يلقي نفسه مطمئناً، الآن فقط أعلم أن الموت ليس ما جعلك تختفين، لم يكن سوى رغبة بالغياب لا أدري من أين جاءتك.

وإنك هناك في مكان ما، تقف أقرب إلى من نفسي من غير أن أعرف.

الآن سأتكئ على أطراف النوم، طيف أمي وأبي وسارة واليتامى وأنت تدورون حولي في دروشة تحمل جسدي إلى السماء.

اريد أن أغفو، وأغفو، وأغفو يا ريا..

اهترأت عيناي يا ضحى.

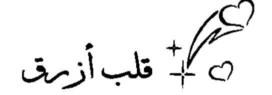
هذا الحزن كالورم يتفشى في داخـلي ويظـل يكـبر ويـصيبني بالهرم يذبلني ويترك الخدوش السهلة في كلي تمزقني.

لا شيء يقدر أن يثنيني عن هذا الوهم الذي يغرس أضـافره في مداراتي، قلبكِ الآن منارة مطفأة عن هذا الليل الذي لا يـشمر اثوابه عن سيقان النهار.

قوافلي المحملة ببقاياي منهكة، صـحراؤها مـدى واسـع، لم أقصد أن أقسو عليكِ بغيابي إلى هذا الحد، لم أظن أن هذا الغيـاب سيجعلكِ تأخذين الربيع معكِ، وتتركين لي هذا الشاهد أبلله كل يوم بقصائدي ودموعي.

اسمكِ عليه، كيف اتسعت تلك الحفرة الضيقة لروح متخمة بالعجائب والجمال والسحر، كل يوم أنـا هنـا، لأنـني أضـيع بـلا حضنكِ ويقذفني آخر النهار إلى بقاياكِ، أغسل نحيبي بالصبر على أطلالـك، والكـمان الـذي ينـسج الـسماء فـوقي بالزرقـة لقلبـكِ الأزرق كل يوم وليلة، ويتبع ظلي حيث تظلين أنتِ فيَّ كظلي.

جمعت بعد أن مت كل ما كتبت هنا، كل هذا العشق في هـذه الأسطر وفي شـقائي الـدائم عـلى اغـترابي العبثـي الـذي جعلـكِ تتسربين من أصابعي التائهة ومن كوني.



تمنيت لو أنكِ وقعتِ في غرام أحد آخر وظللت في هذه الدنيا.

احتمل احتراق أنا اراكِ كل يوم مع نبض غير نبضي يحبك ويقدس هذا الطهر المنسكب من ضحكتك على لا أن أراكِ البتة.

أقرأ لكِ كل يوم سورة الضحى، أظل إلى الفجر هنا غير عابئ بالظلام، أحمل قنديلي وأظل معكِ.

الليل الموحش الحقيقي هو أن أكون بعيداً عنكِ، تجمعنا الأحاديث التي لا يسمعها سوانا، أنا وأنت وكل الموتى وحارس المقبرة الذي أرى فيه نفحة من جمالك، والذي يبكي كل يوم على قبركِ وقبر يحمل اسم سلمى يبعد امتاراً قليلة من هنا، صحيح لم أخبركِ أنه والدكِ.

النهاية

B L U E   H E A R T

Novel

قلب أزرق

رواية



أسند رأسي إلى الفراغ من بعدك، أتحدث عن الحب بعيون مفتوحة وقلب كدماته زرقاء صافية كالبلور.

أغنية تعبرني من قارة أخرى، تذرفني الدمع وتتركني معلقة على النوافذ، أعدّ العابرين الذين لا يحملون وجهك ولا كلل.

أحاول أن ألملم نزفي في صورة صيفية، أعلقها على جدار وحدتي ندب لا يجعلني أعبر نحو الفرح.

هل لك أن تجدني اليوم في قلبك ؟!

تمثال عنقه موصول بحبل الفناء، منقوع في غياب الماضي العتيق، منسي كأغنية قديمة بالية، ودمه بارد ووجهه مغبر.

هل لك أن تذكرني بعد الرحيل ؟

وردة زرقاء كبرت بين يديك، وعبرت معك الأبواب الموصدة، وشقت قيد الوحدة نحوك زهرة للشمس ..

أذكر اجنحتي التي نمت بسقياك، ها هي تنفلت مني وأنا أرقبها بحزن صامت

تسقط كالنسيم وتنتزع ما تبقى مني.

هل لك على الأقل أن تذكرني ؟ للأبد؟




دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ص.ب 712577 عمان (11171) الأردن
هاتف 877 4655 فاكس 875 4655 6 962+
www.darkonoz.com
dar_konoz@yahoo.com info@darkonoz.com
darkonoz.almarefa darkonoz darkonoz



